
رف
رواية
إيڤان تورچينيف
الحُبُ الأول
ترجمة : رمسيس يونان
أقلام عربية
للنشر والتوزيع

رف 404
الكتاب غير موجود...

الحب الأول

404
الكتاب غير موجود...

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

تورچنيف، إيڤان سيرجييفيتش، 1818-1883

الحب الأول/ تأليف إيڤان تورچنيف، ترجمة رمسيس يونان. – القاهرة.

أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017، 124 ص 14.5×21.5 سم.

تدمك: 9789775217301

1- القصص الروسية
أ- يونان، رمسيس (المترجم)
ب- العنوان 891.73

العنوان: الحب الأول

المؤلف: إيڤان تورچنيف

المترجم: رمسيس يونان

طبعة أقلام عربية الأولى 2017/ 2018

رقم الإيداع: 13544/ 2017

ISBN: 978-977-5217-30-1

العنوان: 1 كريم الدولة - أمام جروبي - طلعت حرب

تليفاكس: 20225740228 + موبايل: 201011745806 +

info@daraqlam.com

Aqlam Arabia Bookstore

www.daraqlam.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار أقلام عربية للنشر والتوزيع

الحب الأول

تأليف

إيڤان تورچنيف

ترجمة

رمسيس يونان



الحب الأول

حين يكون الحب قاتلًا محترفًا

المقدمة

الحب هو الشاطئ الذي نحيا لأجله، نحيا من أجل الوصول إلى راحته، من أجل أن ندركه فينا، فكم من مرة قد اهتدى قاتل بالحب، وبرأ مريض عجزت كل الأيادي عن إنقاذه، إلا ان الحب فى رواية (إيڤان تورچنيف) يختلف كل الإختلاف عن صور الحب التى ألفناها، الحب هنا هو القاتل الحقيقي، قاتل مع سبق الإصرار والترصد قاتل محترف، الحب هنا هو الورطة لا الخلاص، فمن خلال حيلة أقرب إلى المسرحية يضعنا (تورچنيف) أمام حوار ما بين شخصيتين إحداهما رئيسية والاخرى ياتى دورها فى الزمن الضعيف، بخلاف الشخصية المفتاح التى لا تظهر أساسًا وهي شخصية صاحب البيت الذى تروى فيه الحكاية، فبعد أن ينصرف الضيوف يبدأ الحديث، فقد اتفقا كل من البطل الأول (المستمع) بتذكير البطل الثاني بحسب ظهورة فى الحدث باتفاق كانا قد اتفقا عليه فى السابق، ألا وهو أن يحكى كلا البطلين قصة حبه الأول، إلا أن كل المشاهد والضيوف والديكورات تختفى ليتقدم (فلاديمير بتروفتش) ليروى لنا قصته أو سيرة حبه الأول

كما يحلو له أن يصفها بأنها قصة تخرج عن المألوف، وهنا لم يكذب (بتروفتش) قصته كما أشرت فى البداية لا تقدم الحب بالوصف الذى نعرفة أو نرنو إليه بل تروى قصة الحب بوصفة عذابا مبرحا لا يتمنى شخص اي شخص أن يحياة، فإذا أردنا أن نصنف رواية الحب الأول سنجدها فى مضمونها رواية سيكولوجية نفسية بإمتياز وهذا ما سنعرفة من خلال البطل الرئيسي للحكاية، والذى ينشأ فى وسط أرستقراطي ويستمع بحرية تامة بالرغم من كونه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، إلا أن التقاءه بالبطلة (المركز) فى الرواية وهي (زنيدا) ويقع فى أسر حبها حتى تتبدل حياته، فلاديمير بتروفتش الطيب الصادق تنصب له (زنيدا) حبائلها ليرى نفسه والجحيم سواء، فـ(زنيدا) الفتاة الجميلة بشكل يعصى على التوقع لم تبادله نفس الحب، هى فتاة لعوب تغوى هذا والسحر هذا وتعد كل من ترى أن يصلح ليكون ألعوبه فى يدها، (زنيدا) هى المأساة والحل معًا، إلا أنها أجادت لعبة (الغرامات) لتجمع حولها كل شباب بلدتها لترى فى عيونهم تولههم وأفتنانهم بها الوحيد الذى أحبها بصدق هو الشاب (بتروفيتش) فراح يحضر سهراتها ويرى فى عيون كل من يقصدها ليلاً ولعه بها، حتى (بتروفيتش) تحول إلى اضحوكه وبإشارة من اصبعها حولتة إلى وصيف يجلس تحت قدميها، ولأنها تجيد لعبة الشد والجذب كانت إذا ما أحست أن هناك طرف سيفر من أمامها كانت تعيد رمي حبائلها حوله، فـ(زنيدا) الأميرة التى حولتها الظروف إلى فتاة بائسة تحرس

امرأة عجوز هى أمها التى تستدين من كل من تعرف، تؤجج مسرح الأحداث دون أدنى شعور بالذنب، فيتحول الحب على يديها الى دراما هزلية ترفع من تريد إلى أعلى وتهوى بمن تريد إلى الأرض، كل ذاك كان عاديًا بالنسبة للمفاجأة التى سيفجرها (تورچنيف) بعد ذلك، ففى الوقت الذى يتهاوى فيه قلب (فلاديمير بتروفيتش) بسبب حبه لـ(زانيدا) يكتشف المأساة ف(زانيدا) التى تلاعب كل الأبطال على المسرح إذا بهم مجرد ديكور لقصة حقيقية تعيشها (زانيدا) هى قصة غرامها بأبيه، وهنا سيتحول (فلاديمير بتروفيتش) تدريجيًا عن حبها، سيجد وجوده الحقيقي فى مقاومة هذا الحب بمساعدة عن نصائح الدكتور (لوشين) أحد مريدي (زانيدا) ـ من هذا نعرف أن فكرة الصراع التاريخي بين الآباء والأبناء هى فى الأساس مشروع (تروجينف) الأدبى فبعد أن كتب رواية (الحب الأول) ليطرح هذا الصراع الأبدى، أكملها بعد ذلك بروايته (الأباء والأبناء)، نشرت رواية الحب الأول لـ(إيڤان تورچنيف) فى العام 1860، وكانت من الأيات الأشهر فى ذلك الوقت، ومازالت إلى الآن بعد أكثر من قرن ونصف لم تفقد بريقها، ولم يذكر (إيڤان تورچنيف) إلا وتذكر معه (الحب الأول).

ولد (إيڤان تورچنيف) عام 1818 فى أملاك عائلته قرب جبال الأورال، وهو ابن لأسرة روسية عريقة، كان أبوه فارسًا فى إحدى كتائب الخيالة، ومات عندما كان (إيڤان) فى سن السادسة عشرة فترعاه أمة (فرفارا) وهى من أسرة برجوازية كانت تملك أراضى

واسعة، درس إيڤان فى جامعة موسكو وثم جامعة سان بطرسبرج، إلا أنه أرسـل إلى بـرلين فى العـام 1843، وتلقـى تعليمـة عـلى يـد معلمـين ألمـاني وفـرنسي، ومـن هنـاك جـاء إحتكـاك تورچنيف بأوربا التى عاش فيها وعلى يدي ترجمت أهم الأعـمال الأدبيـة مـن الروسـية إلى الفرنسية، كانت (مذكرات صياد) هى أولى الأعمال الأدبية لـ(إيڤان توجنيف)، والذى يصـف فيها حياة الفلاحين الروس البائسة، ثم كتب بعد ذلك روايته (عـش النـبلاء) ثـم تلاهـا بعـد ذلك بتحفته (الحب الأول)، والتى نحن بصدد الحديث عنها، والتى تتطابق فى أحـداثها مـع جزء كبير من حياة (تورچنيف) ذاته فالأب فى الرواية قريب إلى حد كبير من أبيه فى الواقـع، وربما قد انصرفت شخصيته على كثير من أشخاص الرواية، إلا أن (فلاديمير بتروفيتش) وقصته مع (زنيدا) تشبه كثيرًا قصة حب (تورچنيف) للمغنية الفرنسية (بولين جرسيا)، والتى يظـل حبه لها دون مراجعة، بالرغم من معرفته جيدًا بالنتيجة، وأنه يعيش حب من طرف واحـد، ظلت صورة (زنيدا) فى خيال (فلاديمير بتروفيتش) حتى بعد موتها، كذلك ظل خيال (بـولين) لا يغادر إيڤان تورچنيف، ترجمة رواية الحب الأول إلى العربية أكثر من مـرة فقـد ترجمهـا (محمود عبدالمنعم مراد) وصدرت ضـمن مشروع الكتـاب للجميـع كـذلك صـدرت ترجمـة أخرى لها عن دار التقدم فى موسكو وبترجمة غائب طعمة فرمان، إلا أننا منفرد هنا بتقديم ترجمـة مهمـة للفنـان والناقـد والمـترجم الكبـير (رمسـيس يونـان) أحـد أقطـاب الحركـة

السريالية فى مصر، والترجمة قطعة فنية بديعة لا تختلف وأعمال (يونـان) الأخـرى، مـن هـذا المنطلق لنا الحق أن نحتفل بصدور هذه الترجمة عن أقلام عربية للنشر والتوزيع، وهو بحـق اكتشـاف نحـن فخـورين بـه إلى أقصى حـد فمرحبًـا ب(تورچنيـف)، ورائعتـه (الحـب الاول) بترجمة الفنان الكبير رمسيس يونان

طارق هاشم

مهداة إلى

ب. ف. إينكوف

...كان الضيوف قد انصرفو من برهة طويلة. ودقت الساعة الثانية عشرة والنصف. ولم يبـقَ في الغرفة إلى جانب رب الدار غير سيرجي نيكولايتش وفلاديمير بتروفيتش. ودقَّ رب الدار الجرس للخادم كي يرفع بقايا العشاء.

ثم قال، وهو يأخذ مجلسه مسترخيًا في مقعده الوثير، ويشعل سيجارًا: "إذن فقـد اتفقنـا،على كلٍّ منَّا أن يحكي قصة حبه الأول. فلتبدأ يا سيرجي نيكولايتش."

فنظر سيرجي نيكولايتش، وهو رجل قصير مكلـثم منـتفخ القسـمات وسـيم الطلعـة، إلى رب الدار ثم رفع عينيه إلى السقف. وأخيرًا قال: "لم يكن لي قَطُّ حب أول، فقد بدأت رأسًـا بحبـي الثاني."

"وكيف كان ذلك؟"

"غاية في البساطة. فقـد كنـت في الثامنـة عشرة مـن عمـري عنـدما بـدأت أول مـرة أتـودد لإحـدى الفتيات الفاتنات. ولكني تصرفت كما لم يكن في ذلك شيء جديد عليَّ، وكما تصببت بغيرها بعد ذلك

تمامًا. والواقع أني عشقت للمرة الأولى والأخيرة في سن السادسة، وكانت تلك التي وقعت في غرامها مربيتي، ولكن ذلك يرجع إلى عهد بعيد، وقد امَّحت من ذاكرتي تفاصيل علاقتنا. وحتى لو أمكنني تذكرها. فمن ذا الذي يمكن أن يهتم بها؟"

فقال رب البيت: "إذن ماذا نفعل؟ فليس هناك شيء يلذ سماعه من قصة حبي الأول كذلك، فأنا لم أعشق قط قبل أن ألتقي بأنَّا إيفانوفنا، زوجتي الحالية، وقد جرى حبنا سهلًا لينًا منذ البداية: حيث دبر لنا والدانا الأمور، وتعلق كل منا بالآخر سريعًا، فتزوجنا دون إبطاء. فقصتي يمكن روايتها في بضع كلمات. وإني أعترف، يا سادة، أني عندما أثرت موضوع الحب الأول كنت أعول عليكما، فأنتما اللذان _وإن لم تبلغا من السن عِتِيًّا_ لستما مع ذلك من شباب العزاب، فلعلك تستطيع أن تقص علينا شيئًا ممتعًا يا فلاديمير بتروفيتش."

فقال فلاديمير بتروفيتش في تردد، وهو رجل في نحو الأربعين ذو شعر أسود يخالطه الشيب: "إن قصة غرامي الأول هي حقًّا قصة تخرج على المألوف."

فصاح رب البيت وسيرجي نيكولايتش معًا في وقت واحد: "ها!...انعم وأبشر... دعنا نسمعها."

"حسن... لكن لا، لن أحكي لكما القصة، فلست أجيد الرواية، وأنا على يقين من أني لو رويتها فستبدو إما موجزة جافة، وإما مسهبة

زائفة. فإن لم يكن لديكما مانع، فإني أفضل تدوين كل ما أتذكره في كراسة، وبعدئذ أقرؤه عليكما."

فاحتجَّ رفيقاه في البداية، ولكن فلاديمير بتروفيتش كان له في النهاية ما أراد. فالتقوا ثانيةً بعد أسبوعين، وقد بر فلاديمير بتروفيتش بوعده.

وهذا هو ما قرأه على مستمعيه من كراسته:

كنت إذ ذاك في السادسة عشرة من عمري: وما سأرويه وقع أثناء صيف عام 1833.

كنت أعيش في موسكو مع والديَّ. وكانا قد استأجرا منزلًا خارج المدينة. عند بوابة "كالوزسكي"، تجاه حدائق "نسكوتشني" تمامًا. وكنت أستذكر لدخول الجامعة، ولكن لا يمكن أن يقال إني كنت أرهق نفسي.

فقد كنت أحظى بحرية تامة، وأفعل ما أريد، وبخاصة بعد أن فارقني معلمي الأخير، وهو رجل فرنسي كان لا يستطيع أن ينسى أنه هبط على روسيا كقنبلة[1]، وكان يستلقي على سريره طوال النهار وعلى وجهه أمارات الصلف والتحدي. أما أبي فكان يتسامح في معاملتي ولا يبالي، وأما أمي فكانت لا تكاد تنتبه لوجودي، بالرغم من كونها بلا أبناء آخرين، إذ كانت هموم أخرى تشغل ذهنها. وكان

[1] Comme une bombe

أبي، في أيام شبابه، بهي الطلعة، وقد تزوجها لثروتها، إذ كانت تكبره بعشر سنوات. فكانت أمي تعيش كسيفة البال: دائمًا قلقة، غَيْرى، كسيرة النفس، ولكنها لم تكن تبدي شيئًا من ذلك قط في حضرة أبي، فقد كانت تهابه أشد الهيبة، وكان هو يسلك مسلك المترفع عديم الاكتراث، مع شيء من الشدة. وإني لم أرَ قط إنسانًا يضارع أبي في كياسته وثقته بنفسه وسطوته.

ولن أنسى أبدًا الأسابيع الأولى من إقامتي في ذلك المنزل. كان الجو على أصفى ما يكون، فقد انتقلنا إلى المنزل اليوم التاسع من مايو، أي يوم عيد القديس نيكولاس. وكنت أتجول في الأراضي أو في حدائق نسكوتشني، وأحيانًا أهيم خارج حدود البلدة، وكنت آخذ معي كتابًا في العادة، ككتاب كايدالوف في التاريخ أو شيء من هذا القبيل، ولكن قلما كنت أفتحه، فقد كان شاغلي الرئيسي تلاوة الشعر، الذي كنت أجيد حفظه. وكان دمي يغلي وقلبي يحز به ألم غريب لذيذ. كنت في حال ترقب وخوف متواصل لوقوع شيء ما، متعجبًا من كل شيء، ومستعدًّا لأي شيء، وكان خيالي يلعب ويحوم طوال الوقت حول المجموعة نفسها من الآراء، كما تحلق الخطاطيف فوق برج عند مطلع الفجر. كنت أسبح بفكري، وتنتابني الكآبة، بل أحيانًا أذرف الدموع، ولكن من خلال كل هذه الدموع ونوبات الشجن، سواء أكان مرجعها بيتًا عذبًا من الشعر أم جمال المساء، كان ينبعث شعور الطرب الذي تتسم به حياة الشباب، العارمة المتأججة،

كما تنبعث أوراق العشب خلال الأرض في فصل الربيع. وكان لي مُهر لاستعمالي الخاص. فكنت أشد عليه السرج بنفسي وأنطلق به متخيلًا أني فارس في معمعة (ولشد ما كانت بهجتي بصفير الرياح يمر بأذني)، أو أرفع وجهي إلى السماء، لأنهل من ضوئها الشعشاع وزرقتها بروحي المتعطشة.

وعلى ما أتذكر، قلما تمثلت في ذهني، إن كانت قد تمثلت، صورة المرأة، بل أي طيف لحب امرأة، بشكل واضح دقيق، ولكني كنت أتخيل أو أشعر بأنه يمكن وراء كل ذلك شبه إحساس خفي بشيء جديد، عذب فوق الوصف، أي، بعبارة مختصرة، شيء أنثوي.

وهذا الهاجس، هذا الترقب المتواصل، كان يتخلل كياني كله، كنت أتنفسه، وأشعر به يسري في عروقي، بل في كل قطرة من دمي... وسَرعان ما قدر له أن يتحقق.

فقد كان المبنى الرئيسي في مسكننا الريفي يتكون من منزل خشبي يقوم على عمدان ومن جناحين منخفضي السقفين، وكان في أحدهما الذي على اليسار مصنع صغير ينتج ورق الجدران الرخيص. وكثيرًا ما كنت أختلف إليه لمراقبة فئة من صغار الصبيان النحاف الشعث الشاحبي الوجوه في أرديتهم القذرة وهم يقفزون علي الروافع الخشبية المحملة على إطار المطبعة المستطيل لطبع الرسوم المبهرجة بثقل أجسامهم الضامرة. أما الجناح الذي على اليمين فكان

شاغرًا ومعدًّا للإيجار. وفي يوم من الأيام، بعد التاسع من مايو بنحو ثلاثة أسابيع، انفتحت النوافذ بغتة وأطلت منها وجوه نسائية، فقد كانت إحدى العائلات قد احتلت الجناح. وأتذكر أمي وهي تسأل خادمنا (السفرجي) في ذلك اليوم ساعة العشاء: مَن جيراننا الجدد؟ ولدى سماع اسم الأميرة زاسكينا تقول أو لا، مع شيء من التجلة: "أوه، أميرة..." ثم تردف قائلة: "في ضنك على الأرجح."

فقال الخادم، وهو يضع طبقًا على المنضدة في احترام: "لقد استخدموا ثلاث عربات لنقل الأمتعة. ولكن ليس لهم عربة يملكونها، والأثاث يبدو رخيصًا جدًّا."

فقالت أمي: "نعم، ولكني مع ذلك مسرورة..." وهنا ألقى عليها أبي نظرة قارصة، فسكتت.

والحق أنه لم يكن من الممكن أن تكون الأميرة زاسكينا امرأة غنية، فالجناح الذي استأجرته كان من الخراعة والضآلة والانخفاض بحيث لا تقبل سكناه أية أسرة على أدنى نصيب من اليسر. ولكنني لم أهتم عندئذ بهذا الحديث اهتمامًا كبيرًا. ولم أتأثر كثيرًا بمرتبة الأميرة، إذ كنت قد قرأت قبيل ذاك مسرحية "اللصوص" لشيلر.

وكان من عادتي التجول كل مساء في الأراضي، ومعي بندقية، أملًا في صيد بعض الغربان. فقد كنت من زمن طويل أشعر بالمقت نحو تلك الطيور الماكرة المختلسة النهابة. وفي اليوم الذي أتحدث

عنه، خرجت لبغيتي المعهودة، وبعد أن سلكت كل السبل سُـدًى (حيـث كانـت الغربـان قـد لمحتني فأخذت ترسل نعقاتها القصيرة بعيدًا في الفضاء)، وجـدت نـفسي بـالقرب مـن السـور المنخفض الذي يفصل بين قطعتنا من الأرض والحديقة الضـيقة الممتـدة خلـف الجنـاح الـذي على اليمين والتابعة له. فسرت بجواره مطرقًا... وإذا بي أسمع أصواتًا بغتة، فألقيت نظرة فوق السور، فجمدت في مكاني وكأني تحجـرت، حيـث وقعـت عينـاي عـلى مشـهد فـذ لم أرَ أغـرب منه...

فعلى بُعد خطوات، في فرجة وسط شجيرات توت خضراء، كانت تقف فتـاة هيفـاء باسـقة القوام في ثوب وردي مخطط، ومنديل أبيض على رأسها، على حين التف حولها أربعة شبان، وكانت تضرب بالترتيب كل واحد منهم على جبهته بتلك الأزهار الرماديـة الزرقـاء الصـغيرة التي يعرفها الأطفال أشد المعرفة، وإن كنت لا أعرف اسمها. ونوريات هذه الأزهـار تكـون أكياسًا صغيرة تنفجر مفرقعة عندما تلقى على سطح جامد. وكان إقبال الشبان على عـرض جبهاتهم يبلغ حدًّا مـن الحـماس، كـما أن جميـع حركـات الفتـاة (التـي كنـت أراهـا مـن الجانب) كانت تنطوي على قدر مـن العـزة والحنـان والسـخرية والجاذبيـة، حتـى كـدت أصيح عجبًا وطربًا، وشعرت بعزمي على التضحية بكل شيء للفوز بأن يصفع جبيني بهـذه الأنامل الرقيقة. وتزحلقت بندقيتي هاوية على العشب، وغفلت عن كل شيء، وأنـا ألـتهم بعينـي هـذا الـخصر الرهيـف، وهـذا العنـق الرشـيق، وهـاتين الـذراعين الجميلتـين،

وهذا الشعر الأشقر المتناثر قليلًا والبادي تحت المنديل الأبيض، وهاتين العينين الذكيتين اللتين تكاد تخفيهما الأهداب، وهذا الخد اللطيف تحت الأهداب... وإذا بصوت يصيح بالقرب من أذني: "أيها الشاب_أيها الشاب! أَمِن آداب السلوك، أن تحملق في الآنسات الغريبات؟"

فجفلت مذعورًا. كان يقف بالقرب مني، على الجانب الآخر من السور، رجل ذو شعر أسود قصير، ينظر إليَّ في سخرية. وفي هذه اللحظة عينها، التفتت الفتاة نحوي. فرأيت عينين نجلاوين رماديتين وسط وجه نضير بهيج، وإذا بالوجه ينطلق ضاحكًا بغتة، فتبرق أسنان بيضاء، على حين ارتفع الحاجبان بشكل مضحك... وعندئذ احمر وجهي خجلًا، فالتقطت بندقيتي، وهرعت إلى غرفتي، يلاحقني رنين ضحكات صاخبة، ولكنها تخلو من الشماتة، ثم ارتميت على فراشي، وغطيت وجهي بيدي. كان قلبي يثب حتى يكاد ينخلع. وكنت أشعر بالخجل والسعادة في آن واحد. ولم يحدث قط أني كنت على هذا النحو من الاضطراب.

وبعد أن استرحت لحظة من الزمن، رجَّلت شعري، و"نفضت" سترتي، ثم هبطت لشرب الشاي. وبقيت صورة الفتاة أمامي لا تفارقني، ومع أن قلبي لم يعد يثب كما كان منذ برهة، فقد كنت أشعر بوخزة حادة لذيذة تنتابني حينًا بعد حين.

وسألني أبي فجأة: "ما الذي حدث؟ هل قتلت غرابًا؟" وكنت أريد أن أخبره بكل شيء، ولكني أحجمت، قانعًا بالاستغراق في ابتسامة خفية, وقبل ذهابي إلى الفراش، درت لسبب ما مرتين أو ثلاثًا على عقبيَّ، ودهنت شعري، فما إن رقدت حتى استغرقت في سبات عميق طول الليل. واستيقظت برهة قبيل الصبح، فرفعت رأسي، وألقيت على ما هو حولي نظرة مبتهجة، ثم عدت إلى النوم ثانية.

"كيف يمكنني التوصل إلى معرفتهم؟" كان هذا هو أول ما خطر ببالي عندما استيقظت وذهبت إلى الحديقة قبل الإفطار، ولكني لم أجرؤ على الاقتراب كثيرًا من السور، ولم أرَ أحدًا. وبعد تناول طعام الإفطار، قطعت الشارع ذهابًا وإيابًا أمام منزلهم، وأنا أنظر إلى النوافذ من بعيد... وخيل إليَّ مرة أني رأيت وجهًا خلف الستائر، فارتددت في فزع. ثم قلت لنفسي: "ولكن يجب أن أتوصل إلى معرفتها"، وأنا أتثاقل في الخطى حول رقعة الأرض المغطاة بالرمال أمام حدائق نسكوتشيني. "ولكن كيف؟هذا هو السؤال." وتذكرت أدق تفاصيل مقابلة الأمس، وبوجه ما بقيت صورة ضحكها مني أوضح صورة في ذاكرتي. على أن القدر كان يعمل من أجلي حينما كنت أنهك نفسي في تدبير الخطط.

فبينما كنت خارج المنزل، تسلمت أمي من جارتها الجديدة خطابًا مكتوبًا على ورق رمادي ومختومًا بالشمع القاتم الذي تختم به

عادة حوالات البريد وزجاجات النبيذ الرخيص. وفي هذا الخطاب الرديء الخط، المليء بـأغلاط النحو، تتوسل الأميرة إلى أمي أن تستخدم نفوذها من أجلها! فأمي، على ما تقـول في خطابهـا، على صلة طيبة بجماعة من القوم ذوي النفوذ، الـذين يتوقـف علـيهم مصـير الأمـيرة، ومصـير بنيها، لأن عليها عددًا من القضايا الخطيرة الشأن... ومضت تقـول: "إني أتوسـل اليـك، كسـيدة مهذبة، وإني في الوقت نفسه مسرورة بهذه الفرصة." واختتمت خطابهـا ملتمسـة أن تتفضـل أمي باستقبالها. ووجدت أمـي في كـرب شـديد، فلـم يكـن أبي موجـودًا، ولم يكـن لـديها أحـد تستشيره. ومن غير المعقول ألا تجيب "سيدة مهذبة"، وأميرة فوق ذلك، و لكن كيف تجيـب؟ هذا ما كان يحيرها. فقد كانت تشعر بأنها لو كتبت رسالة باللغة الفرنسية، كان ذلك خـير مـا يناسب المقام، ولكنها لم تكن تتقن هجاء اللغة الروسية، وكانت تعلم أنه من العار أن تفضـح نفسها، ولذلك سُرَّت بعودتي، فأرسلتني حالًا إلى الأميرة موصية إيـاي بـأن أخبرهـا شـفهيًّا بأنـه يسر أمي أن تصنع أي شيء في قـدرتها لأجـل خـاطر سـموها، وهـي مسـتعدة لاسـتقبالها بـين الساعة الثانية عشرة والواحدة. ومـع أن هـذا التحقيـق الـذي لم أكـن أتوقـع أن يكـون بهـذه السرعة لأمنياتي الدفينة قد غمرني بسعادة جمة، فقد أفزعني في الوقت نفسه، ولكني لم أظهر ما كنت أشعر به من حرج، وصعدت إلى غرفتي، لأرتدي معطفًا ورباط عنق جديدًا فقد كنت ألبس في البيت، على غير رضاي، سترة وقميصًا مفتوحًا.

وفي الممر القذر المُقبض الذي دخلته وبدني كله يرتجف، قابلني خادم عتيق أشيب ذو وجه نحاسي قاتم، وعينين كئيبتين كعيون الخنازير، وعلى حاجبيه وصدغيه تجاعيد من العمق لم أرَ لها مثيلًا من قبل. وكان في يده صينية عليها بقايا سمكة من سمك "الرنجة"، فسألني بلهجة فظة، وهو يغلق باب الحجرة بقدمه:

ـ ماذا تريد؟

فسألته: "هل الأميرة زاسكينا موجودة؟"

وعندئذ سمعت صوتًا نسائيًا مرتعشًا ينادي من وراء الباب: "فونيفاتي!"

وبدون أن ينبس ببنت شفة، دار الخادم على عقبيه، كاشفًا عمَّا أكله الدهر وشرب على ظهر حلته، المزدانة بزر وحيد يعلوه الصدأ، والمصنوعة من معطف عسكري، ثم انصرف واضعًا الصينية على الأرض.

وسمعت الصوت المرتعش نفسه يسأل: هل ذهبت إلى مركز الشرطة؟" فأجاب الخادم بتمتمة لم أسمعها. فمضي الصوت يسأل: "ماذا تقول؟ شخص يريد رؤيتي؟ السيد الشاب جارنا؟ حسنًا، دعه يتفضل."

وقال الخادم: "تفضل في قاعة الاستقبال"، وهو يظهر من جديد ويرفع الصينية من الأرض. فشددت رباط عنقي ودخلت "قاعة الاستقبال".

فوجدت نفسي في حجرة صغيرة غير مرتبة، بالية الأثاث، وقد بدا كأنه قد ألقي في الغرفة على عجل. وبجوار النافذة كانت تجلس امرأة تناهز الخمسين ويخلو وجهها من الجمال في مقعد مكسور الذراع، وكانت مكشوفة الرأس ترتدي ثوبًا قديمًا أخضر، ولفاعًا مغزولًا زاهي الأصباغ حول رقبتها. وكانت عيناها السوداوان الصغيرتان تحدقان في شخصي.

فأقبلت عليها وانحنيت:

ـ هل لي شرف التحدث إلى الأميرة زاسكينا؟

- أنا الأميرة زاسكينا؟ هل أنت ابن السيد_ ف؟

- نعم ياسيدتي. لقد جئت برسالة من أمي.

ـ ألا تتفضل بالجلوس؟ يا فونيفاتي! أين مفاتيحي، ألم ترها في مكان ما؟ وأبلغت الأميرة زاسكينا ردَّ أمي على خطابها. فأصغت إليَّ وهي تنقر على حافة النافذة بأصبعها الحمراء الغليظة. وبعد أن أنهيت إليها البلاغ، عادت تحدق في.

ثم قالت آخر الأمر: "حسن جدًّا، سوف آتي بالتأكيد. إنك تبدو صغيرًا جدًّا! كم عمرك ياترى؟"

فقلت متلعثمًا: "السادسة عشرة"

وعندئذ انتزعت الأميرة من جيبها بعض الأوراق الملوثة المملوءة "بالشخابيط"، وأخذت تنظر إليها، ممسكة بها بالقرب من عينيها.

ثم قالت فجأة: "سن لطيفة جدًّا"، وهي تدور وتتململ في مقعدها. "يجب ألَّا تتكلف معنا، فنحن جميعًا غاية في البساطة هنا."

فقلت لنفسي: "بل أبسط مما ينبغي." وأنا ألقي نظرة اشمئزاز غريزي على شخصها الصفيق.

وفي تلك اللحظة، انفتح الباب الآخر لقاعة الاستقبال، وظهرت في مدخله الفتاة التي كنت قد رأيتها في اليوم السابق. وقد رفعت يدها، ورفرفت ابتسامة على شفتيها.

فقالت الأميرة وهي تشير بيدها نحو الباب: "ابنتي. زنيدا، هذا هو ابن جارنا السيد_ف. ما اسمك من فضلك؟" فأجبتها واقفًا، وأنا أكاد أتلعثم من شدة الاضطراب: "فلاديمير".

ـ ولقبك؟

- بتروفيتش.

ـ تصور أني كنت أعرف رئيس شرطة يدعى فلاديمير بتروفيتش. لا حاجة للبحث عن مفاتيحي يا فونيفاتي، فهي في جيبي.

ومضت الفتاة تنظر إليَّ بابتسامتها الساخرة، وقد ضمت أجفانها شيئًا ما، وأمالت رأسها قليلًا إلى أحد الجانبين.

ثم قالت: "لقد رأيت السيد فولدمار من قبل... (فاهتزت نفسي مأخوذة بصوتها الفضي الرنين)... ألا يضيرك أن أدعوك باسمك الأول؟"

فأجبتها متلعثمًا: "لِمه، طبعًا لا!"

وسألتها الأميرة: "أين كان ذلك؟" ولكن الأميرة الشابة لم تجب أمها.

ثم سألتني وهي ما برحت تنظر إليَّ: "ألديك شيء تفعله في هذه اللحظة؟"

ـ كلا!

ـ أتحب أن تساعدني على لف بعض الصوف؟ تعالَ معي. ثم غادرت غرفة الاستقبال مومئة برأسها، فتبعتها.

وكان الأثاث أقل رثاثة ومرتبًا بذوق أجمل في الغرفة التي دخلناها. على أني لم أكن إذ ذاك في حال تسمح لي بملاحظة أي شيء، فقد كنت أتحرك كما لو كنت في حلم، وكأن أطرافي قد سرى فيها شعور بالغبطة كاد يبلغ حد البله.

وجلست الأميرة الشابة، وأخرجت لفافة من الصوف الأحمر وأشارت إلى كرسي إزاءها، ثم حلت الصوف بعناية على يديَّ الممدودتين. وقد فعلت هذا كله في صمت، وكأنها تلهو، وعلى شفتيها المنفرجتين ابتسامة ماكرة هادئة. ثم أخذت تلف الصوف حول بطاقة مطبوقة، وإذا بها تباغتني بنظرة بلغ من بريقها أن حملتني قسرًا على غضِّ طرفي. وعندما كانت عيناها اللتان كانت تضمهما في العادة، تنفتحان برهة عن آخرهما، كان وجهها يتغير تغيرًا شاملًا، فتبدو ملامحها و كأنها أضيئت فجأة.

ثم قالت، قاطعة حبل الصمت: "إني أتساءل عمَّا حسبته أمس من أمري يا سيدي فولدمار: أظنك لم ترضَ عني البتة."

فأجبتها مرتبكًا: "أنا... يا أميرة... لم أحسب شيئًا على الإطلاق... وكيف كنت أقدر؟..."

فقالت: "اسمع! إنك لا تعرفني بعد، فأنا مخلوق عجيب، أريد دائمًا من الجميع أن يصدقوني القول. ولقد سمعتك تقول إنك في السادسة عشرة من عمرك. أمَّا أنا ففي الحادية والعشرين، أترى كيف أكبرك بكثير؟ ولذا يجب أن تصدقني القول على الدوام... وأن تطيعني" ثم أردفت قائلة: "انظر إليَّ، لماذا لا تنظر إليَّ وجهًا لوجه؟"

فازددت حرجًا على حرج، ولكني مع ذلك رفعت عيني. فابتسمت، ولكن بصورة تختلف عمَّا قبل، ففي هذه المرة كانت هي ابتسامة الرضا.

ثم قالت بصوت منخفض عطوف: "لا تخف، أَدِم النظر إليَّ." ثم أردفت مازحة: "هذا لا يضايقني. إن وجهك يعجبني، وأشعر أننا سنصبح أصدقاء. هل أعجبك؟"

فبدأت قائلًا: "أيتها الأميرة..."

ـ أولًا، يجب أن تدعوني زنيدا أليكساندروفنا، وثانيًا، أنا لا أطيق أسلوب الأطفال..." ثم صححت قائلة: "الشبان في عدم الإفصاح برأيهم صراحة. فلتترك ذلك للكبار. إنك معجب بي، أليس كذلك؟

ومع ابتهاجي بصراحتها، لم يسعني إلا أن أحس شيئًا ما يجرح مشاعري. ولرغبتي الشديدة في أن أبين لها أنها ليست بصدد صبي صغير، قلت لها محاولًا اصطناع عدم التكلف والرزانة: "إني أعجب بك كثيرًا جدًّا يازنيدا أليكساندروفا، ما في ذلك شك، وليس لديَّ أقل رغبة في إخفاء هذه الحقيقة..."

فأخذت تهز رأسها على مهل. ثم سألتني فجأة: "ألك معلم؟"

ـ كلا، لم يعد لي معلم من زمن طويل... (وكانت هذه أكذوبة، فلم يكن قد مضى شهر على فراق معلمي الفرنسي).

ـ إذن فقد كبرت حقًّا.

وربتت على أصابعي قائلة: "شد ذراعيك" ثم أخذت في حل الصوف بنشاط عظيم.

واغتنمت فرصة انكبابها على عملها، فأخذت أتفرس فيها خلسة أول الأمر، ثم متجاسرًا أكثر فأكثر. وعندئذ بدا لي وجهها أشد فتنة مما كان في اليوم السابق، فقد كانت ملامحها بالغة الرقة والذكاء والعذوبة. وكانت تجلس وظهرها صوب النافذة التي كانت معلقة عليها ستارة بيضاء، ينفذ خلالها شعاع فينسكب لينًا على شعرها الذهبي الناعم، وعنقها الطاهر، وكتفيها المنحدرتين، ونهدها الغض الوادع. كنت أنظر إليها، ولشد ما بدت لي أنها أصبحت قريبة مني أليفة إليَّ! شعرت أني أعرفها من عهد سحيق، وأني لم أعرف شيئًا،

بل لم أعش حقًّا قبل أن ألتقيها... وكانت ترتدي ثوبًا قاتمًا أقرب إلى الرثاثة، وفوقه "مريلة". فهفت نفسي إلى تحسس كل ثنية في هذا الثوب وهذه "المريلة". وكانت أصابع قدميها تبرز من تحت ثوبها، ولكم كنت أشتهي أن أخر ساجدًا لهاتين القدمين... وقلت لنفسي: "هأنذا جالس إزاءها... وقد تعرفت إليها... ياللعجب_ ياله من نعيم!" وأوشكت أن أقفز من مقعدي من فرط نشوتي، ولكني أمسكت بنفسي في اللحظة المناسبة، وأخذت فقط في تحريك رجلي كطفل أعطي شيئًا لذيذًا ليأكله.

لقد كنت منشرحًا مثل سمكة تتهادى وسط المياه، فوددت لو مكثت إلى الأبد في تلك الغرفة، وعلى ذلك المقعد.

وارتفع الجفنان في رفق، فسكبت العينان المتألقتان ضياءهما الحنون من جديد عليَّ. وعادت إلى الابتسام.

ثم قالت في رفق وهي تشير بإصبعها نحوي: "ما أشد تحديقك فيَّ!"

فاحمر وجهي احمرارًا شديدًا، وقلت لنفسي: "إنها تفهم كل شيء، وترى كل شيء. وهل كان يمكن ألا ترى وتفهم كل شيء؟"

وسمعت فجأة صوتًا في الغرفة المجاورة_ قعقعة سلاح. ونادت الأميرة من غرفة الاستقبال: "يا زينا! لقد أحضر لك بيلوفزورف قطيطة."

فصاحت زنيدا: "قطيطة!" ووثبت من مقعدها قاذفة بكرة الصوف على حجري، وجرت خارج الغرفة.

فوقفت أنا أيضًا، ووضعت الصوف على حافة النافذة، ثم دخلت غرفة الاستقبال فوقفت في مكاني مشدوهًا: ففي وسط الغرفة كانت ترقد قطيطة مخططة، وقد مدت براثنها الأربعة على الأرض، وكانت زنيدا جاثية بجانبها، وممسكة برأسها في رفق. وبجانب الأميرة العجوز، كان يقف شاب وسيم طويل القامة من رجال الخيالة، ذو شعر جعد أشقر، ووجه وردي وعينين جاحظتين، وقد كاد يملأ بعرضه المسافة بين النافذتين.

وسمعت زنيدا تتمتم في لين وتنغيم: "يا له من شيء صغير مضحك! ليست عيناه رماديتين، بل هما خضراوان، وبالهما من أذنين كبيرتين عظيمتين! شكرًا يا فيكتور يجوريتش! أنت محبوب!"

فابتسم الفارس الذي تعرفت فيه على أحد الشبان الذين كنت قد رأيتهم في اليوم السابق، وانحنى رانًّا مهمازيه، فجلجت حلقات غمده المعدنية.

ـ لقد طاب لك أن تقولي إنك ترغبين في قطيطة مخططة كبيرة الأذنين... فأتيت بواحدة. إن كلمتك قانون.

ثم انحنى الشاب مرة ثانية.

وماءت القطيطة مواء خافتًا وأخذت تتشمم الأرض.

فنادت زنيدا: "فونيفاتي! سونيا! أحضري شيئًا من اللبن!

فدخلت خادمة في ثوب أصفر رثٍّ، وحول عنقها منديل شاحب اللون، حاملة كوبًا من اللبن، وضعته أمام القطيطة.

فجفلت القطيطة وأدارت عينيها ثم أخذت تلعق اللبن.

وصاحت زنيدا في تعجب: "ما أشبه لسانها بلون الورد" وهي تحني رأسها حتى كادت تبلغ الأرض، محاولة النظر من الجانب الذي تحت ذقن القطيطة.

وشربت القطيطة حتى ارتوت ثم أخذت تموء رافعة مخلبيها الأماميين الواحد بعد الآخر في نشاط وخفة. ونهضت زنيدا والتفتت إلى الخادمة قائلة في غير اكتراث: "خذيها بعيدًا".

وقال الخيَّال متلطفًا، وقد ضاقت بزته الجديدة ببدنه الضخم: "يدك_مقابل القطيطة."

فأجابته زنيدا: "كلتاهما" ومدت يديها له. وبينما كان يقبلهما، نظرت إليَّ من فوق كتفه.

وكنت واقفًا بلا حراك، غير قادر على اتخاذ قرار فيما إن كان ينبغي أن أضحك، أو أبدي ملاحظة ما، أو أمكث صامتًا. ولكني لمحت فجأة خلال الباب المفتوح خادمنا فيدور يومئ إليَّ، فتوجهت إليه وسألته:

- ماذا تريد؟

فهمس قائلا:

- لقد أرسلتني والدتك للبحث عنك. وهي غاضبة منك لعدم عودتك بالجواب.

ـ لمه، كم قضيت من الزمن هنا؟

- أكثر من ساعة.

فرددت عبارتة عن غير وعي: "أكثر من ساعة" وعدت إلى غرفة الاستقبال، وأخذت أستأذن الحاضرين في الانصراف، مكررًا الانحناءات، ومحاذيًا قدميَّ إحداهما بالأخرى.

فسألتني الأميرة الصغيرة، وهي تصوب إليَّ نظرة من فوق كتف الخيَّال:

- إلى أين ذاهب؟

- يجب أن أعود إلى البيت.

والتفتُّ نحو السيدة العجوز ثم أردفت قائلًا.

ـ إذن سأخبر أمي أن تنتظرك بعد الساعة الواحدة، أليس كذلك؟

- بلى، قل لها ذلك، ياسيدي!

وأخرجت الأميرة العجوز على عجل علبة نشوقها، وتنشقت بصوت بلغ من ارتفاعه أني جفلت فعلًا. ثم كررت جوابها: "قل لها ذلك" وهي تتنخع وتزر عينيها الدامعتين.

فانحنيت ثانية، ودرت على عقبي، وخرجت من الغرفة، وأنا أحس في ظهري بذلك الضيق الذي يعرفه جيدًا كل شاب صغير يعلم أن الأنظار مسلطة عليه.

وصاحت زنيدا في ضحكة من ضحكاتها:

- لا تنسي أن تأتي ثانية لرؤيتنا.

فقلت لنفسي: "لماذا تكثر الضحك إلى هذا الحد؟" وأنا أسير عائدًا إلى البيت. يرافقني فيدور، الذي كان من الجلي أنه غير راضٍ عني، وإن لم يقل شيئًا.

وعنفتني أمي متسائلة ماذا كنت أفعل طوال هذه المدة في منزل الأميرة، فلم أجب، وإنما صعدت إلى غرفتي. وشعرت بغتة بحزن شديد. فلم أتمالك دموعي إلا بشق النفس... لقد كنت غيران من الخيّال!

ووفت الأميرة بوعدها، فأتت لزيارة أمي، ولكنها عجزت عن الفوز بعطفها. ولم أشهد اجتماعهما، ولكني سمعت أمي تخبر أبي أثناء الأكل أنها أرهقتها بالالتماسات طالبة أن تكلم الأمير سيرجي عنها، وأنها غارقة في القضايا والمنازعات_وفي مسائل مالية مشينة[2] وأنها لا بد أن تكون دساسة[3] محترفة. غير أن أمي أردفت قائلة مع

[2] De vilanines affaired d'argent
[3] intrigante

ذلك إنها قد دعتها هي وابنتها للعشاء في اليوم التالي (فما إن سمعت عبارة "وابنتها" حتى أطرقت برأسي)، لأنهما جارتان على كل حال، والاسم يدل على أنهما من أسرة كريمة. فأخبرها أبي _جوابًا عن كل ذلك_ أنه يتذكر الآن من هذه السيدة، ففي أيام شبابه كان يعرف المرحوم الأمير زاسكين، وقد كان رجلًا مهذبًا للغاية، ولكنه طائش مغرور، وكان يلقب في المجتمعات بلقب الباريسي[4]، بالنسبة إلى إقامته الطويلة في باريس، وقد كان في يوم من الأيام عريض الثراء، ولكنه بدد ثروته في المقامرات، وأنه لسبب ما، والأرجح من أجل المال، تزوج ابنة موظف صغير، مع أنه كان من الممكن أن يختار شيئًا أحسن _وهنا (ابتسم والدي إحدى ابتساماته القارصة)_ وبعد ذلك انغمس في المضاربات المالية، فأفلس في النهاية.

فقالت أمي:

- أرجو ألّا يكون قصدها السعي في اقتراض بعض النقود. فقال أبي في هدوء:

- إن فعلت فما أدهش... أتتكلم الفرنسية؟

- غاية في الرداءة.

ـ ولكن ما أهمية ذلك؟ أظن أنك قلت إنك قد دعوت ابنتها أيضًا؟ وقد بلغني أنها فتاة مليحة ومثقفة.

[4] Le parisien

ـ إن كانت كذلك، فهي لا تشابه أمها.

فرد عليها أبي قائلًا:

- ولا أباها، فقد كان غبيًّا بالرغم من تعلمه.

فتنهدت أمي ثم شرد فكرها. وصمت أبي ولم يزد. أما أنا فقد كنت أشعر بضيق شديد طوال هذه المحادثة.

وبعد العشاء، توجهت إلى الحديقة ولكني لم آخذ بندقيتي. وكنت قد عاهدت نفسي على ألا أقترب من "حديقة زاسكين"، غير أن قوة لا تقاوم يلوح أنها كانت تسوقني نحوها، ولم يكن ذلك عبثًا. فما إن اقتربت من السور، حتى رأيت زنيدا. وكانت وحيدة في هذه المرة، وتمسك بكتاب في يديها، وتسير الهوينى في الطريق. ولكنها لم تنتبه لوجودي.

وكدت أدعها تمر، لولا أنني تداركت نفسي في اللحظة المناسبة، فسعلت سعلة خفيفة.

فأدارت رأسها دون أن تتوقف عن السير، ولم تفعل شيئًا سوى أنها أزاحت الشريط الأزرق العريض المتدلي من قبعتها المستديرة المصنوعة من القش، ونظرت إليَّ بابتسامة خفيفة، قبل أن تدير عينيها إلى الصفحة من جديد. فخلعت معطفي، وأخذت أتمشى متلكئًا برهة من الزمن، ثم بارحت المكان مثقل القلب، وأنا أقول لنفسي بالفرنسية

(لست أدري لماذا): ما منزلتي لديها؟[5] وسمعت خطوات مألوفة خلفي، فاستدرت فرأيت أبي يسير نحوي بمشيته النشيطة الخفيفة المعتادة. ثم سألني:

- أتلك ابنة الأميرة؟

- نعم.

ـ إذن فأنت تعرفها؟

- لقد رأيتها صباح اليوم في منزل أمها.

فتوقف أبي ودار بسرعة على عقبه، ثم قفل راجعًا. فلما وصل إلى جانب زنيدا انحنى متلطفًا. فبادلته الانحناء، ولكن مع شيء من سيماء الدهشة على وجهها، وخفضت كتابها. ورأيت عينيها تتبعه وهو يبتعد. وكان أبي دائمًا أنيق الهندام، في بساطة ولكن بذوق خاص ينفرد به، ولكني لم أره قط رشيقًا إلى هذا الحد أو قبعته الرمادية موضوعة بمثل هذا الانسجام على شعره المتموج الذي لم تنل منه الأيام إلا قليلًا.

وسرت بضع خطوات متجهًا نحو زنيدا، ولكنها لم تتكرم حتى بالنظر إليَّ، بل رفعت كتابها من جديد، مبتعدة عني.

وقضيت المساء كله وصباح اليوم التالي في شبه غيبوبة تعسة.

وأتذكر أني حاولت العمل ففتحت كتاب كايدانوف، ولكن العبارات الجزلة في هذا الكتاب المدرسي الشهير كانت تتألق أمام

[5] 5 Que suis – Je pour elle?

عيني بلا جدوي... قرأت ما لا يقل عن عشر مرات: "اشتهر يوليوس قيصر ببسالته في القتال" فلما رأيت أني عاجز عن فهم هذه العبارة، تركت الكتاب في النهاية. وقبيل العشاء دهنت شعري مرة بعد مرة، وارتديت معطفي ووضعت رباط عنقي.

فسألتني أمي:

- لم ذلك؟ إنك لم تصبح طالبًا بعد، ومن يدري إن كنت ستنجح في الامتحان، ثم إن سترتك لا زالت جديدة، فهل نرميها؟ فهمست قائلًا وقد كاد يتملكني اليأس:

- ولكن سيكون معنا ضيوف على العشاء...

ـ كلام فارغ! هؤلاء الضيوف لا أهمية لهم.

ولم يكن في الوسع غير الإذعان، فارتديت السترة بدلًا من المعطف ولكني لم أخلع رباط عنقي. ووصلت الأميرة وابنتها قبل موعد العشاء بنصف ساعة. وكانت المرأة العجوز قد وضعت شالًا أصفر فوق الثوب الأخضر الذي كنت أعرفه من قبل، ووضعت على رأسها قبعة قديمة العهد ذات شرائط متوهجة الألوان. وأخذت على الفور في التحدث عن صكوك ديونها، ثم تنهدت وشكت فقرها وأعولت، ولكن لم يبدُ عليها وهي تسلك هذا المسلك أي أثر من آثار الاستحياء، بل أخذت تتنشق بالصوت المرتفع نفسه، وتهتز في كرسيها بعدم التحرج نفسه كما لو كانت في بيتها. فلم يكن يبدو أنها مقتنعة بفكرة كونها أميرة. أما زنيدا

فكانت رزينة، بل تكاد تفرط في التحشم، وأميرة في كل جزء منها. وبدت على وجهها سيماء الوقار والصرامة، حتي كدت لا أعرفها. وكذلك كانت ابتسامتها ونظراتها مختلفتين عما عهدت، ولكنها في هذا الزي لم تكن أقل جمالًا في نظري. كانت تلبس ثوبًا من الصوف الخفيف تزينه رسوم زخرفية خفيفة الزرقة، وكان شعرها يتدلي في خصلات طويلة على الجانبين على الطريقة الإنجليزية، وهو طراز كان يلائم التعبير الرزين المرتسم على وجهها، وجلس أبي بجوارها أثناء العشاء، فلم ينقطع عن مؤانسة جارتة. بلطفه المهذب الهادئ. وبين الفينة والفينة كان ينظر إلى وجهها، وبين الفينة والفينة كانت تنظر إليه، وكان هناك شيء غريب، يوشك أن يكون عدائيًا، في هذه النظرات! وكانا يتحدثان باللغة الفرنسية، وأتذكر أني شدهت بصفاء نطقها. أما الأميرة العجوز فقد كان مسلكها أثناء العشاء يتصف بالحرية التي أظهرتها من قبل، ولم يبدُ عليها حرج على الإطلاق، فقد كانت تأكل في نهم، وتثني على الطعام. وكان من الواضح أن أمي قد وجدتها متعبة، فكانت تجيبها في شيء من الكآبة والازدراء، وكان أبي يجفل من حين إلى حين بصورة لا تكاد تحس. ولم تعبأ أمي بزنيدا كذلك، فقد قالت عنها في اليوم التالي:

ـ صبية سفيهة تشمخ بأنفها! بودي أن أعرف ما الذي تراه في نفسها كي تفخر به هذا الفخر، وهي بمظهرها هذا[6]. فرد عليها أبي ملاحظًا:

[6] Avec sa mine de grisette

- من الجلي أنك لم تريْ قط أمثال أولئك العاملات اللعوبات في حياتك.

ـ والحمد لله على ذلك.

ـ الحمد لله بالفعل... ولكن لمَّا كان الأمر كذلك، فليس من حقك الحكم عليهن.

ولم تعرني زنيدا أدنى انتباه. وبعد العشاء ببرهة وجيزة، استأذنت أمها في الانصراف.

وقالت في صوت ممل، وهي توجه الحديث إلى والدي كليهما.

ـ إذن يمكنني أن أعتمد على رعايتكما، يا ماريا نيكولايفنا وبيوترفازليفيتش، هكذا الحال! لقد عرفت أيامًا أسعد، ولكن أين هي الآن؟...."

ثم أردفت قائلة وهي تضحك ضحكة كريهة:

- هأنذا، صاحبة السمو، ياسلام! ولكن الشرف لا يفيد كثيرًاعندما لا يوجد ما يسد الرمق...

وانحنى أبي لها في احترام وصحبها إلى خارج الغرفة. ووقفت أنا بلا حراك، في سترتي القصيرة، أرنو إلى الأرض كمن حكم عليه بالإعدام. إذ أن مسلك زنيدا حيالي كان قد أهلكني وأفناني فتصور دهشتي إذن، عندما قلت في همسة خاطفة، وهي تمر بي، وفي عينيها تلك النظرة اللطيفة التي عهدتها من قبل:

- تعالَ زرنا في الساعة الثامنة هذا المساء، إياك أن تنسى، الآن...

فما كان مني إلا أن أشحت بذراعي مشدوهًا، ولكنها كانت قد ابتعدت، وهي تلقي ملفعة بيضاء على رأسها.

وفي تمام الساعة الثامنه، دخلت ممر الجناح الذي تسكنه الأميرة، بعدما كنت قد ارتديت معطفي، وصففت شعري في خصلة فوق رأسي. وألقى عليَّ الخادم العجوز نظرة عابسة، وهو يقوم متلكئًا من الدكة التي كان يجلس عليها. وسمعت أصواتًا طروبة تأتي من قاعة الاستقبال. ففتحت الباب، فتراجعت مذهولًا. ففي وسط القاعة، كانت تقف الأميرة الشابة على الكرسي، ممسكة بقبعة رجل في يديها، وحول الكرسي خمسة رجال يتزاحمون وهم يحاولون جميعًا وضع أيديهم داخل القبعة، على حين أمسكت هي بها تهزها بعيدًا عن متناول هذه الأيدي. فما إن لمحتني، حتى صاحت:

- انتظروا، انتظروا... ها هو ذا زائر جديد، يجب أن يحصل على تذكرة هو الآخر...

وقفزت في خفة من الكرسي، وجرتني من كمي قائلة:

- تعال، لا تقف هناك! أيها السادة، اسمحوا لي بأن أقدمكم بعضكم إلى بعض: هنا هو السيد فولدمار، ابن جارنا، وهؤلاء هم_وهنا التفتت إليَّ، مشيرة إلى الضيوف واحدًا بعد الآخر: الكونت ماليفسكي، والدكتور لوشين، والشاعر مايدانوف، والكابتن المتقاعد

نيرماتسكي، وبيلوفزوروف من سلاح الفرسان، وقد قابلتة من قبل. وأرجـو أن تصـبحوا جميعًـا أصدقاء. وقد بلغ من ارتباكي أني ذهلت حتى عن الانحناء، وفي شخص الدكتور لوشـين تعرفـت إلى السيد ذي الشعر الأسود الذي كان قد تهكم عليَّ بقسوة شديدة في الحديقة، أمـا البـاقون فكانوا جميعًا غرباء عليَّ.

ومضت زنيدا قائلة:

- ياكونت! اكتب تذكرة للسيد فولدمار.

فاعترض الكونت، وقد بدت في نطقه لهجة بولندية خفيفة:

- هذا ليس من العدل، فهو لم يلعب لعبة الغرامات معنا وكان شابًّا جميلًا مفرط التأنق، وله عينان عسليتان معبرتان، وأنـف دقيـق شـاحب، وشـارب رفيـع مشـذب فـوق فـم في منتهـى الصغر.

وردد هذه العبارة _"ليس من العدل... ليس من العدل"_ كل من بيلرفزوروف والسيد الـذي قدم إلي على أنه كابتن متقاعد، وهو رجل يناهز الأربعين، ووجهه منقر تنقيرًا شنيعًا بالجدري، وشعره جعد كشعر الزنوج، مستدير الكتفين، أعوج الساقين، ويرتدي سترة عسكرية غير مزررة وبدون شرائط على الكتفين. فكررت الأميرة أمرها:

- أقــول لــك، اصــنع لــه تــذكرة! إني لا أقبــل العصــيان! هــذا هــو أول يـوم للسـيد فولـدمار معنـا، فـلا بـأس مـن التغـاضي عـن القـانون مـن أجـل

خاطره. دعك من الجدال الآن، وافعل كما قلت لك! فهز الكونت كتفيه، ولكنه طأطأ رأسه في خضوع، وأمسك بقلم في أصابعه البيضاء المزدانة بالخواتم، ثم مزق قصاصة من قطعة من الورق، وأخذ يكتب.

وسألها لوشين في صوت متهكم:

- هل تسمحين على الأقل بأن نشرح قواعد اللعبة للسيد فولدمار؟ فهو يبدو في حيص بيص. انظر أيها الشاب، إننا نلعب لعبة الغرامات، وقد وقعت الغرامة عليها، فمن يحصل على التذكرة المحظوظة فسيكون له حق تقبيل يدها. هل هذا واضح؟

فحملقت فقط إلى وجهه، ووقفت صامتًا وكأني في ذهول، على حين وثبت الأميرة مرة أخرى على الكرسي وأخذت تهز القبعة ومد الجميع أيديهم للوصول إليها، وأنا من بينهم.

وقالت الأميرة:

- يامايدانوف _موجهة حديثها إلى شاب طويل ذي وجه نحيف وعينين صغيرتين قصيرتي النظر وشعر أسود طويل_ بما أنك شاعر، فينبغي أن تبدي شيئًا من الأريحية وتدع السيد فولدمار يأخذ تذكرتك علاوة على تذكرته كي تكون لديه فرصتان بدلًا من فرصة واحدة.

ولكن مايدانوف هز _فقط_ رأسه، رافعًا شعره الطويل إلى الخلف. ووضعت يدي في القبعة آخرهم، وانتزعت تذكرتي... وفتحتها. فتصور شعوري عندما رأيت كلمة "قبلة" عليها!

صحت بالرغم عني:

- قبلة!

فصاحت الأميرة على الفور:

- برافو! لقد ربح! إني مسرورة جدًّا!

ونظرت إلى عيني، وهي تهبط من الكرسي، مع ابتسامة عذبة هادئة حتي خيـل إلي أن قلبـي يدور في صدري. وسألتني:

- أمسرور أنت؟

- أنا؟

كان هذا كل ما استطعت أن أقوله.

وهمس بيلوفزوروف في أذني مازحًا:

- بعني تذكرتك. سأعطيك مئة روبل.

فحدجت الفارس بنظرة مهلكة جعلت زنيدا تصفق بيديها ولوشين يهتف:

"برافو!" "مرحى"!

واستطرد لوشين قائلًا:

- ولكـن بوصـفي رئـيس التشريفـات يجـب أن أصر عـلى اتبـاع القواعـد اتباعًـا تامًّـا. ياسـيد فولدمار! اركع على إحدى ركبتيك! فهذه هي عادتنا المرعية.

وقفت زانيدا إزائي، ورأسها يميل قليلًا إلى أحد الجانبين _كأنها تحاول أن تتملى وجهي_ ومدت إليَّ يدها في وقار شديد. فغشيت عيني غشاوة، وكنت أريد أن أجثو على إحدى ركبتيَّ، فوقعت عليهما كلتيهما، ولمست بشفتي أنامل زنيدا بصورة بلغ من قلة لياقتها أن خدشت أرنبة أنفي بأحد أظافرها.

وقال لوشين:

- هذا يكفي! وهو يساعدني على النهوض.

واستمرت لعبة الغرامات. فأجلستني زنيدا بجوارها. وحدِّث ولا حرج عما اكتشفته من عقوبات، وقد وقعت إحداها من نصيبها، فطلب منها أن تتخذ هيئة تمثال. فاختارت نيرماتسكي الدميم قاعدة لها، بعد أن جعلته ينبطح أرضًا على وجهه ويدخل رأسه بين كتفيه. لم يكن الضحك لينقطع قط ولا لحظة واحدة.

ولما كنت قد تربيت في بيت محترم من بيوت الطبقة الراقية، تسوده الحشمة والوقار، فهل كان من العجيب أن تكون كل هذه القعقعة والصخب، وهذا المرح الطليق الأشبه بالعربدة، وهذه الألفة التي لا تصدق مع الغرباء، قد لعب برأسي؟ لقد كنت ثملًا كما أحتسي الخمر. فاخذت أضحك وأتكلم بصوت أعلى من أي شخص آخر في الغرفة، حتى إن الأميرة العجوز، التي كانت في الغرفة المجاورة مع موظف كانت قد استدعته للتشاور، أتت لترى ماذا جرى. ولكني

كنت سعيدًا إلى حد أني _كما يقول المثل السائر_ لم أدر شعرة، ولم أعبأ كذلك بملاحظات بعضهم الهازئة أو بنظرات الآخرين العابسة. وقد استمرت زنيدا في تمييزي ولم تدعني قط أبتعد عن جوارها. وكانت إحدى العقوبات التي نلتها هي أن أجلس ملتصقًا بها، يغطي رأسينا كليهما منديل حريري واحد، وأخبرها "بسري". وإني لأتذكر إحساساتي عندما أحاط برأسينا فجأة ضباب أرج مطبق شفاف، وعندما تألقت عيناها خلال هذا الضباب في نعومة وقرب شديد، وهبت نسمات أنفاسها دافئة، وبرقت أسنانها، ووخزتني ودغدغتني أطراف خصلاتها... وكنت صامتًا، فابتسمت في غموض ودهاء، وهمست أخيرًا: "ماذا؟" فاحمرت وجنتاي خجلًا وضحكت وأدرت رأسي وقد كادت تنقطع أنفاسي. وسرعان ما سئمنا لعبة الغرامات فانتقلنا إلى لعبة أخرى تستخدم فيها قطعة من الخيط. ويا للمتعة التي شعرت بها عندما شرد فكري مرة فوبختني توبيخًا لاذعًا، ولكم تصنعت أني شارد الفكر من جديد، ولكم تجنبت هي عمدًا لمس يدي، لمجرد إغاظتي!

يا لأنواع المجون والألاعيب التي لعبناها ذاك المساء! لقد عزفنا على البيانو، وغنينا ورقصنا، ولقد تصنعنا أننا نَوَر نسكن الخيام، فألبسنا نيرماتسكي على صورة دب وجعلناه يشرب ماء مالحًا. وأرانا الكونت ماليفسكي حيلًا شتى بورق اللعب، مختتمًا "بتفنيط الكوتشينة" وتوزيعها علينا للعبة "الهويست"، وإذا به يحصل هو على

جميع الأوراق الرابحة، فهنأت لوشين على ذلك "تهنئة قلبية". وأنشدنا مايدانوف بعض مقطوعات من قصيدته "السفاح" (فقد كانت الحركة الرومانية عندئذ في أوجها)، تلك القصيدة التي كان ينوي إحضارها في جلدة سوداء وعنوانها مطبوع بحروف كبيرة بلون الدماء. ثم سرقنا قبعة الموظف من فوق رجليه، وجعلناه يرقص رقصة الكازاتشوك قبل أن نردها إليه. ووضعنا قبعة نسائية على رأس الشيخ فونيفاتي، على حين تزينت زنيدا بقبعة رجل ولكنه من المستحيل أن أسرد كل مافعلنا. وقد بقي بيلوفزوروف وحده منزويًا في ركن الغرفة معظم الوقت، مغطيًا حاجبيه متجهمًا ومن حين إلى حين كانت تحتقن عيناه، ويتوهج وجهه بحمرة الغضب، فيبدو كأنه يوشك أن ينقض علينا ليمزقنا إربًا إربًا! ولكن الأميرة الشابة كانت تنظر عندئذ إليه، وتهز إصبعها محذرة، فيعود إلى ركنه ثانية.

وأخيرًا أنهكت قوانا. ومع أن الأميرة كانت لم تزل _على حد قولها_ قادرة على الاحتمال، ولا يزعجها صخبنا، فقد شعرت هي بالتعب، ورغبت في قسط من الراحة. وقدم إلينا العشاء بعد الساعة الحادية عشرة بقليل، وكان يتكون من قطعة من الجبن الناشف وفطائر محشوة "بالجامبون المفروم"، فاستطعمت كل ذلك أكثر من أي نوع من الأنواع "الباتيه". ولم يكن على المائدة غير زجاجة واحدة من النبيذ، وكان لها مظهر عجيب، فقد كانت قاتمة جدًّا ولها عنق منتفخ، والنبيذ نفسه كان له مذاق الصبغة الحمراء، لكن لم يشرب منه أحد

على أية حال. وغادرت الجناح خائرًا وقد أنهكت السعادة قواي، فضغطت زنيدا على يدي بشدة وهي تودعني، مبتسمة ابتسامتها الغامضة من جديد.

وشعرت بأنفاس الليل الثقيلة الرطبة على وجهي الساخن، وكان الجو ينذر بالرعد: فقد كانت السحب السوداء تزداد حجمًا وهي تزحف عبر السماء، وتتغير أشكالها بلا انقطاع. وأخذت نسمة ترتجف متململة بين قمم الأشجار القاتمة، وهنالك في الناحية الأخرى من السماء كان الرعد يبدو كأنه مزمجر بصوت غاضب أجوف.

وذهبت إلى غرفتي من الباب الخلفي. وكان خادمي ينام على الأرض فخطوت من فوقه، فاستيقظ ورآني وأبلغني أن أمي قد استاءت مني ثانية وأرادت أن ترسله في طلبي ولكن أبي منعها من ذلك. (ولم يحدث قط من قبل أني توجهت للنوم دون أن استودعها متمنيًا لها ليلة سعيدة وطالبًا بركتها). ولكن هل كان في الوسع حيلة؟

وقلت للرجل: إني سأخلع ملابسي بنفسي، ثم أطفأت الشمعة... ولكني لم أخلع ملابسي ولم أرقد.

فقد جلست على كرسي، ومكثت عليه مدة طويلة، وكأني واقع تحت تأثير سحر... فالذي كنت أشعر به كان جديدًا لم أعرفه من قبل، عذبًا غاية العذوبة. جلست بلا حراك، أنظر حواليَّ، وأتنفس أنفاسًا عميقة، مطلقًا بين الحين والحين ضحكة صامتة إذ أتذكر بعض

ما جرى، أو تتولاني قرة حين أفكر: أنا الآن عاشق، هـو إذن هكـذا العشـق. وكـان وجـه زنيـدا يرفرف لطيفًا أمام عيني، لا يكاد يغيب أبدًا عن نظري، وشفتاها تبتسـمان في غمـوض، وهـي ترنو إليَّ من طرفي عينيها، مستفهمة، متأملـة، متـوددة... كـما كانـت عنـدما ودعتنـي. وأخـيرًا قمت وتوجهـت عـلى أطـراف أصـابعي إلى الفـراش، في حـذر شـديد، ورقـدت دون أن أخلـع ملابسي، وكأني أخشى أن تؤدي أية حركة مقتضبة إلى إزعاج تلك التي كانت تفيض بها نفسي.

رقدت ولكني لم أنم، بل لم أغمض جفني. وسرعان ما لاحظت أن أشباحًا باهتة تتسلل إلى غرفتي، فنهضت ناحية النافذة. فظهر لي إطارها واضـحًا إلى جانـب بيـاض ألواحهـا الزجاجية الغريب. فقلت لنفسي: عاصفة، وقد كانـت بالفعـل عاصـفة، ولكنهـا كانـت بعيدة قاصية، إلى حد أن صوتها لم يبلغ أذني، إلا أن خطوطًا متشبعة طويلة باهتة مـن البرق كانت تومض بلا انقطاع عبر السماء، أو بالأحرى لم تكن تـومض بقـدر مـا كانـت ترتعش وتنتفض كجنـاح طـائر يقـترب مـن المـوت. فقمـت مـن فـراشي وتوجهـت إلى النافذة، ووقفت هناك حتى مطلـع الفجـر... ولم يتوقـف الـبرق لحظـة واحـدة، فلقـد كانت ليلة من تلك الليالي التي يسميها أهل القرى الروسية "ليلـة العصـفور الـدوري". ومكثت أرمق رقعة الرمال الصامتة والظلال الكثيفة في حدائق نسكوتشني، وواجهـات المباني البعيدة ذات اللون الأصفر الشاحب، التي كانت تبدو كأنها ترتعش كلـما ومـض

البرق... مكثت أرمق دون أن أستطيع انتزاع نفسي من هذا المنظر، فتلك الومضات الصامتة، وذاك الضياء الخافت، كانت تبدو كأنها تردد النزوات الصامتة الغامضة التي كانت تتوقد داخل نفسي. ثم بدأ يطلع النهار، فظهر الفجر في سرابيله القرمزية. ومع اقتراب الشمس أخذت لمعات البرق تزداد شحوبًا وقصرًا، ثم أخذت تمتد الفترات بين رعشاتها حتى ذابت في النهاية في نور النهار المقبل، هذا النور المبتذل المفيق...

وانطفأ كذلك اللهب المتوقد في باطن نفسي. وشعرت بخمود وتعب شديد... ولكن طيف زنيدا بقي يرفرف فوق روحي ناضرًا غير أن هذا الطيف بدا عندئذ هادئًا وادعًا كالبدر عندما يرتفع مطلًا على الخمائل، برز هذا الطيف صافيًا من كل ما هو غير جميل حواليه. وعندما طواني الكرى، سجدت أمامه من جديد في إيمان وتقديس.

فأين أنت الآن، أيتها العواطف المستسلمة، والأصوات الخافتة، وأيتها الينابيع من الرقة والصفاء التي تفيض بها روح مدلهة؟ وأين أيها الضياء المذاب، ضياء الحب الأول؟ أين أنت؟

وفي الصباح التالي، عندما نزلت لشرب الشاي، أنبتني أمي، ولكن أقل مما كنت أتوقع، وجعلتني أخبرها كيف قضيت المساء. فخبرتها في إيجاز، ضاربًا صفحًا عن معظم التفاصيل، ومجتهدًا في تصويرالأمور في أبرإ صورة ممكنة.

فقالت أمي ملاحظة:

- ولكنهم مع ذلك ليسوا قومًا كما ينبغي[7] تمامًا، وليس هناك ما يدعوك إلى التحويم حولهم، فعليك أن تستعد لامتحانك.

ولما كنت أدرك أن اهتمام أمي بدراستي لن يتعدى هذه الكلمات القليلة، فلم أتجشم مشقة التناقش معها، ولكن بعد تناول شاي الصباح، جذبني أبي من ذراعي، وقادني إلى الحديقة، وجعلني أخبره بكل مارأيته في منزل أسرة زاسكين.

وقد كان لأبي سطوة عجيبة عليَّ. وكانت العلاقات بيننا غريبة في مجموعها. فهو قلما كان يهتم بتعليمي، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يقول لي شيئًا قط يجرح شعوري، فقد كان يحترم حريتي، بل كان _إن جاز هذا التعبير_ مؤدبًا معي... ولكنه كان لا يقرِّبني قط من نفسه. لقد كنت أحبه، وأعجب به، وكنت أعتبره مثالًا أعلى للرجولة، ولكم كان يمكن أن أعبده لولا شعوري الدائم بأنه كان يتعمد إبقائي على مبعدة منه! وعندما كان يريد، كان يمكنه في غمضة عين، بكلمة واحدة، بل بإيماءة واحدة، أن يملأني بثقة لا حد لها. وفي مثل هذه اللحظات، كانت روحي تتفتح، فأنطلق في الحديث، كما لو كنت في صحبة صديق ذكي أو نصوح سميح... لكن أبي كان يهجرني بغتة، كما كان قد أقبل عليَّ بغتة، فأشعر ثانية بأني منبوذ، في رفق وعطف شديد، ولكني مع ذلك منبوذ.

[7] Comme il faut

وكان يتولاه أحيانًا شعور بالمرح والانشراح، فيلهو وينط معي وكأنه غلام صغير (وكان مغرمًا بشتى أنواع التداريب الرياضية العنيفة)، وفي إحدى المرات _إحداها فقط_ دللني في حب شديد حتى كدت أذرف الدموع... ولكن انشراحه وعطفه كان كلاهما يختفيان دون أن يخلفا أثرًا، ولم يكن في وسعي قط أن أعقد أي أمل على المستقبل استنادًا إلى ما جرى بيننا، فلم يكن كل ذلك يبدو إلا أضغاث أحلام. وكنت أحيانًا أرنو إلى وجهه الهادئ الباهر الوسيم حتى يخفق قلبي ويتطلع كياني كله إليه... فكان هو، وكأنه قد خمن ما يدور في نفسي، يربت على خدي عرضًا، ويخرج من الغرفة ويشغل بشيء آخر أو يتجمد كالجليد فجأة، مثلما كان يمكنه هو وحده أن يتجمد، وعندئذ كنت أنا أيضًا أنكمش في الحال وأتجمد. فما كان ينتابه نادرًا من نوبات العطف نحوي، لم يكن يرجع قط إلى توسلاتي الصامتة، بالرغم من وضوحها الجلي، بل كانت تطرأ دائمًا على غير توقع.

وعندما أخذت أتأمل فيما بعد في خلق أبي، استنتجت أنه كان مهتمًا بأمور أخرى عداي، وعدا حياتنا العائلية، وأن قلبه كان مشغولًا بشيء آخر مختلف، بشيء كان يتمتع به كل التمتع... وقد قال لي مرة: "خذ ما تستطيع، ولكن لا تضحِ أبدًا بنفسك. فامتلاك النفس للنفس، ذاك هو قوام الشيء الذي ندعوه الحياة." وفي مرة أخرى أخذت، بوصفي أحد الديمقراطيين الشبان، أدافع عن الحرية في حضرته (وكان يوم ذاك في إحدى حالاته "الرقيقة" حيث كان في وسع المرء أن يقول ما يشاء). فردد كلمة "الحرية" قائلًا:

- وهل تعلم ما الشيء الوحيد الذي يزود الإنسان بالحرية؟

ـ ما ذاك؟

- الإرادة، إرادته الخاصة, ولسوف تزوده أيضًا بالقوة، التي هي خير من الحرية، تعلم أن تعرف ماذا تريد، تصبح حرًّا وقادرًا على قيادة الآخرين."

فلقد كانت غاية أبي الأولى والأخيرة هي أن يمارس الحياة، وكان يمارسها بالفعل، ولربما كان لديه شعور خفي بأن ليس أمامه وقت طويل للتمتع "بالشيء الذي نسميه الحياة": فقد مات في سن الثانية والأربعين.

وقد أعطيت أبي وصفًا كاملًا لزيارتي لأسرة زاسكين. فأصغى إليَّ في نوع من الانتباه الساهي، وهو جالس على دكة بالحديقة يرسم في الرمل بطرف عصاه. فضحك مره أو مرتين، وألقى عليَّ نظرة براقة لاهية، ملحفًا عليَّ بالأسئلة والملاحظات المقتضبة. وفي البداية لم أجسر حتى على النطق باسم زنيدا، ولكن سرعان ما لم أعد قادرًا على تمالك نفسي فأخذت أشيد بذكرها. وبقي أبي يضحك في نفسه، ثم استغرقته الأفكار ساقه ونهض واقفًا.

وتذكرت أنه لدى مغادرته المنزل كان قد أمر السائس بشد السرج على حصانه. وقد كان من أمهر ركاب الخيل، وفي وسعه قيادة أشد الخيول شراسة، وذلك قبل أن يكشف السيد "ريري" عن حذقه بزمن طويل.

فسألته:

- هل آتي معك يا أبتِ؟

فقال، وقد عاد إلى وجهه تعبيره المعتاد من عدم الاكتراث المشوب بنوع من الحب والعطف:

- كلا. يمكنك الذهاب وحدك إن شئت، وأخبر السائس أني لن أركب الحصان:

ثم أدار لي ظهره وانصرف في خطوات خفيفة سريعة. فتتبعته بعيني حتى اخترق البوابة واختفى. ورأيت قبعته تتحرك بحذاء أعلى السور، وبعدئذ رأيته يدخل منزل أسرة زاسكين.

ومكث هناك أقل من ساعة من الزمن، ولدى خروجه توجه حالًا إلى المدينة، فلم يعد إلى البيت إلا قبيل المساء.

وبعد العشاء، ذهبت أنا نفسي إلى منزل أسرة زاسكين. فوجدت الأميرة العجوز وحدها في قاعة الاستقبال. فلما رأتني هرشت رأسها بطرف إبرة "التريكو" وسألتني بغتة: هل أستطيع أن أنسخ "عرضحال" لها؟

فأجبتها وأنا أجلس على حافة الكرسي:

- بكل سرور.

فقالت وهي تعطيني ورقة مملوءة "بالشخابيط":

- لا تنسَ أن تكتب الحروف بشكل كبير واضح. وهل تظن أنك تستطيع الفراغ من نسخه اليوم، أيها السيد الشاب؟

- نعم سأنسخه اليوم.

وانفتح باب الغرفة المجاورة قليلًا، فظهر وجه زنيدا شاحبًا مهمومًا، وشعرها مُسرحًا في إهمال إلى الخلف. ورمقتني بعينين كبيرتين باردتين، ثم أوصدت الباب في هدوء.

فنادتها أمها:

- زنيدا! اسمعي يازنيدا!

ولكن زنيدا لم تجب. فأخذت "عرضحال" المرأة العجوز معي إلى البيت وقضيت بقية المساء في نسخه.

وقد بدأ "وجدي" من ذلك اليوم. وأظن أن مشاعري قد كانت أشبه بمشاعر رجل يستهل حياته في الخدمة العسكرية. فلم أعد مجرد صبي، وإنما أصبحت عاشقًا. ولقد قلت إن وجدي قد بدأ منذ ذلك اليوم، فقد كنت أتلوع وأنا بعيد عن زنيدا، فلا أستطيع تركيز فكري، بل لا أستطيع شيئًا سوى التفكير فيها طول اليوم... كنت أتلوع وأنا بعيد عنها... ولكن وجودها معي كان هو أيضًا لا يضمد جراحي. كنت غيورًا، أشعر بتفاهتي، وأعبس في حمق، وأرتمي عند قدميها فيما لا يقل عن ذلك حمقًا، ولكن قوة لا تقهر كانت تجذبني إليها،

وفي كل مرة، لم أكن أستطيع عبور عتبة بابها دون أن أشعر بلذعة الفرح. وسرعان مافطنت زنيدا إلى أني واقع في غرامها، والواقع أني لم أفكر قط في كتمان سري. فضحكت من خبلي، وأخذت تارة تعبث بي، وتارة تدللني، وتارة تعذبني. فإنه ليلذ للمرء أن يدرك أنه المصدر الوحيد والسبب المطلق الذي لا ينازع لما يشعر به فرد آخر من سعادة عظيمة أو حزن بالغ، وقد وجدتني زنيدا أطوع في يديها من الشمع. ولكني لم أكن الشخص الوحيد الواقع في غرامها، فجميع الرجال الذين كانوا يزورون البيت كانوا يجنون بها، أما هي فكانت تمسك بهم جميعًا بحبل طويل عند قدميها. وكانت مسلاتها أن تثير في قلوبهم الآمال تارة والشكوك تارة أخرى، وأن تطويهم حول خنصرها (وكانت تسمي ذلك تخبيط الناس بعضهم في بعض)، ولم يكونوا هم ليفكروا قط في المقاومة، بل كانوا يخضعون لإرادتها في ابتهاج وسرور. وقد كانت طبيعتها الحية المرحة مشبعة بمزيج مذهل من الدهاء والنزق، ومن التصنع والبساطة، ومن الوداعة والهياج الحيواني. وكان يبدو أن كل ما كانت تقوله أو تفعله تحوم فوقه روح خفيفة لطيفة، وكأن قوة غريبة كانت تعمل في كل مكان. وكان وجهها، الذي كان يتغير على الدوام، يبدو أيضًا ذا قوة خارقة، فكان يعبر في آن واحد تقريبًا عن الزراية والتأمل والحماس. بل كانت أشد العواطف تعارضًا تبدو كأنها تطارد بعضها بعضًا بلا انقطاع على عينيها وشفتيها، في خفة وسرعة، مثل ظلال السحب في يوم مشمس شديد الرياح.

وكل فرد من المعجبين بها كان بالضرورة طوع يديها. فبيلوفزوروف الذي كانت تدعوه "وحشي" كان خليقًا بأن يقتحم النيران من أجلها، ودون أن يعتمد على قواه العقلية أو على أية صفات أخرى، بقي يعرض عليها يده، ملمحًا إلى أن الآخرين ليسوا أهل جد، أما مايدانوف فكان يستجيب إلى الناحية الشاعرية فيها، ومع أنه كان، كمعظم الكتاب، باردًا بطبيعته، قفد كان يؤكد لها في جد، وربما لنفسه أيضًا، أنه يعبدها، متغزلًا بها في فيض لا ينقطع تدفقه من الشعر الذي كان ينشده إياها في نوع من النشوة التي كانت مخلصة ومصطنعة في آن واحد. وكانت هي، مع شعورها ببعض العطف عليه، تعامله في شيء من السخرية، فقد كانت لا تؤمن به إيمانًا كبيرًا، وبعد إصغائها لسيوله المتدفقة، كانت تجعله ينشد شعر بوشكين، وذلك لتصفية الجو، على حد قولها. وأما لوشين، ذلك الطبيب العجيب، الذي كانت كلماته تبدو ساخرة أشد السخرية، فقد كان يفهمها ويحبها أكثر من جميع الآخرين. وبالرغم من تحامله عليها، أمامها ومن وراء ظهرها على السواء، كانت تجله، ولكنها لم تكن تبدي عطفًا عليه، بل تجد لذة خبيثة في إشعاره بأنه، هو أيضًا، في قبضة يدها. وقد قالت له مرة أمامي: "إني لعوب، ولا قلب لي، وممثلة بالطبيعة. فلتعطني إذن يدك، الآن، وسوف أغرز فيها دبوسًا، ستشعر بنفسك مهانًا أمام هذا الفتى، وستشعر بالألم، ومع ذلك لن تبخل علينا بالضحك، ياسيدي الصدوق! فاحمرت وجنتا لوشين خجلًا وأدار وجهه، وعض شفته،

ولكنه انتهى بمد يده إليها. فوخزتها، فضحك بالفعل... فضحكت هي أيضًا، وهي تغرز الدبوس غرزًا في لحمه، محدقة إلى عينيه، وهو يحاول عبثًا أن ينحيهما عن وجهها... ولكن الذي كان يتعذر عليَّ فهمه، هو أمر علاقاتها بالكونت ماليفسكي. لقد كان حقًّا وسيم الطلعة، يقظًا، ذكيًّا، ولكن كان يحوم به شيء مريب، شيء مزيف، استطعت حتى أنا، الصبي في السادسة عشرة، أن أشعر به، فكنت أتعجب كيف يمكن لزنيدا ألا تلاحظه. ولكن من يدري؟ فلربما كانت قد فطنت إلى هذا الزيف، ولم تأبه به! فما كان يعتور تعليمها من نقص، وعجيب عاداتها، وغريب معارفها من القوم، وبقاء أمها المتواصل إلى جانبها، والفقر والفوضى في البيت في كل شيء، والحرية التي كانت تحظى بها هذه الفتاة إلى شعورها بالتفوق على أولئك الذين يحيطون بها، قد غرس فيها ضربًا من الاستهتار المقترن بشيء من الازدراء، ونوعًا من الغلظة الخلقية. فمهما يحدث في البيت، سواء أجاء فونيفاتي يعلن أنه لا سكر، أم انفضحت دناءة من دناءات القيل والقال، أم تشاجر ضيوفها فيما بينهم، كانت تقنع بهز رأسها ملقية خصلاتها إلى الخلف، وتقول: "كلام فارغ!" رافضة أن تتأثر بما يجري.

أما عن نفسي فقد كان دمي يغلي كلما تسلل ماليفسكي إليها، ماكرًا كالثعلب، وأطل في رشاقة من فوق ظهر مقعدها، وأخذ يهمس في أذنها وهو يبتسم في تلطف ومداهنة، على حين تجلس هي متكتفة شاخصة إليه، باسمة تهز رأسها إلى اليمين وإلى اليسار.

وسألتها مرة:

- ما الذي يجعلك تستقبلين الكونت ماليفسكي؟

فأجابت:

- إن له شاربًا "منسقًا" غاية في الفتنة، أفهمت؟ ولكنك لا تستطيع طبعًا أن تفهم ذلك.

وقالت لي مرة أخرى من تلقاء نفسها:

- لعلك تظن أني مغرمة به، كلا، لن أستطيع أبدًا أن أعشق رجلًا من هذا النوع، رجلًا ليس في وسعي إلا أن أنظر إليه من علٍ. فأنا في حاجه إلى امرئ قادر على كسر عزيمتي. ولكني _والحمد لله_ لن أعثر أبدًا على مثل هذا الشخص. فلست أريد أن أقع في مخالب أحد.

ـ هل معني ذلك أنك لن تحبي رجل أبدًا؟

فردت عليَّ وهي تلمس أنفي بقفازها:

- وماذا عليك؟ أولست أحبك؟

أجل! لقد كانت زنيدا تلهو كثيرًا على حسابي. وقد انقضت ثلاثة أسابيع كنت أراها فيها كل يوم، ويا للحياة التي جعلتني أعيشها خلال هذه المدة! ولم تكن تأتي كثيرًا إلى منزلنا، ولم أكن آسفًا على ذلك، ففي كل مرة كانت تأتي عندنا، كانت تلعب دور الآنسة المهذبة، دور الأميرة، فيتولاني الحياء. وكنت أخشى أن يفتضح سري أمام أمي، وهي التي كانت غير راضية البتة عن زنيدا، وكانت تراقبنا في شزر.

وكنت لا أبالي أبي قدر مبالاتي بأمي، فهو كان يجهلني، وقلما كان يتحدث إليها، ولكنه حينما كان يكلمها، كان ذلك دائمًا ليقول شيئًا باهرًا وسديدًا. ولقد تخليت عن دراساتي وقراءاتي، بل تخليت عن تجولاتي الريفية وعن ركوب الخيل. وكنحلة موثوقة ساقها، طفقت أدور وأحوم حول الجناح الحبيب. ولو أن الأمر كان ممكنًا، لكنت قد مكثت كذلك إلى الأبد... ولكن أمي كانت تتذمر، وكانت زنيدا تطردني في بعض الأحيان. وعندما كانت تفعل ذلك، كنت أحبس نفسي في غرفتي، أو أذهب إلى أقصى طرف في الحديقة، حيث أتسلق الجدار العالي المتصدع المبني من الطوب، الذي يحيط بمكان تربية النباتات، وأجلس هنالك ساعات متتالية مدليًا ساقي على الجانب الذي يواجه الطريق، محملقًا فيما أمامي بعينين لا تبصران. فتأتي فراشات بيضاء وترفرف على حشائش القريص المتربة، ويحط عصفور دوري صغير جريء على طوبة مكسورة بالقرب مني، ويأخذ يزقزق في شيء من السخط، ويدور... ويدور ناشرًا ذيله. أما الغربان، التي كانت لا تزال تنظر إليَّ في ارتياب، فكانت تنعق من حين إلى حين من فوق قمة شجرة تامول جرداء، على حين كانت تلعب الشمس والرياح بين أغصانها الدقيقة، وأحيانًا كان يبلغ أذني رنين الأجراس الهادئ الرصين من صومعة دونسكوي. فكنت أمكث هكذا أنظر وأصغي، وقلبي يطفح بإحساس لا قدرة لي على وصفه، فقد كان يشمل كل شيء، الحزن والفرح، والهواجس المقلقة، والرغبة في الحياة، والخوف من الحياة، ولكني لم أكن أفهم شيئًا عندئذ من كل ذلك، وما

كان ليمكنني أن أجد اسمًا لما كان يعتلج في باطني، أو، لو كنت حاولت ذلك، ما كنت قد وجدت غير اسم واحد لكل هذه الخوالج، وهو زنيدا...

وكانت زنيدا طيلة الوقت تلعب بي كما يلعب القط بالفأر. كانت تغازلني فكنت أذوب على الفور وأضطرب، أو كانت تصدني فجأةً، فكنت لا أجسر على الاقتراب منها بل على النظر إليها. وأتذكر مرة أنها جافتني عدة أيام متوالية، فخارت عزيمتي... فكنت أتسلل وجلًا إلى الجناح وأحاول البقاء بجوار الأميرة العجوز بالرغم من أنها كانت إذ ذاك في كرب شديد، حيث كانت شئونها المالية على أسوإ ما يكون، حتى لقد اضطرت مرتين للتوجه إلى مركز شرطة البلدة لشرح حالها.

وفي أحد الأيام، كنت أعبر سور الحديقة المعهود، فلمحت زنيدا. وكانت جالسة على العشب بلا حراك، متكئة إلى الخلف على يديها. فتظاهرت بأني منصرف إلى حالي في هدوء، ولكنها رفعت رأسها فجأة، مومئة إليَّ في خيلاء. فجمدت مكاني، غير متيقن مما تعنيه بإشارتها. ولكنها كررتها، فقفزت حالًا فوق السور وركضت مبتهجًا نحوها. ولكنها أوقفتني بعينيها، مشيرة إلى الممر الممتد على قيد خطوتين من مكانها، فجثوت على جانب الممر. وكانت شاحبة تدل تقاسيم وجهها على الأسى المرير والهم الدفين، حتى لقد تقطعت نياط قلبي، ولم أتوانَ عن سؤالها:

- ماذا جرى؟

فمدت زنيدا يدها، واقتلعت ورقة من العشب، وأخذت تلوكها، ثم قذفت بها بعيدًا عنها.

وأخيرًا سألتني:

- إنك تحبني كثيرًا جدًّا، أليس كذلك؟

إنك تحبني، أليس كذلك؟

فلم أجبها، إذ لم تكن هناك حاجة إلى الجواب.

فقالت، وهي مابرحت تنظر إليَّ.

– بلى، إني أعلم أنك تحبني.

وشرد فكرها فغطت وجهها بيديها، ثم همست قائلة: لقد سئمت كل شيء. أود أن أذهب إلى نهاية العالم لا أستطيع الاحتمال بعد ذلك، لا أطيق... وماذا ينتظرني؟ أف! ماأتعسني، ما أتعسني!

فسألتها في وجل:

- ولكن لماذا؟

فلم تجبني إلا بهز كتفيها. فمكثت جاثيًا، أرنو إليها في بؤس شديد. فقد نفذت كل كلمة قالتها إلى أعماق قلبي. وما كنت لأضن في تلك اللحظة بحياتي من أجل رفع غمتها. كنت أنظر اليها ولا أزال

عاجزًا عن التكهن بسبب شجنها، متخيلًا في وضوح كيف خرجت إلى الحديقة، وقد استبدت بها نوبة من الحزن، فهوت على الأرض وكأنها أصيبت برصاصة في قلبها... وكل ما حوالينا كان خضرة يانعة، وكان النسيم يداعب أوراق الشجر. ويهز بين الحين والحين أغصان شجيرة التوت فوق رأسها.

وكان الحمام يسجع عن بعد، والنحل يطن محومًا على ارتفاع صغير فوق العشب المتناثر. وكانت القبة الزرقاء تسكب ضياءها اللطيف، ولكني كنت أشعر بكآبة لا حد لها...

وسألتني زنيدا في رقة، وهي تتكئ على كوعها:

- ألا تنشدني شيئًا من الشعر؟ إني أحب الإصغاء إليك وأنت تنشد. صحيح أن إنشادك أقرب إلى الترتيل. ولكن لا بأس، فهذا أسلوب الفتيان. أنشدني "تلال جورجيا". ولكن اجلس أولًا فجلست وأنشدت "تلال جورجيا".

فرددت زنيدا البيت الأخير:

"فليس في وسعها ألا تحب"

قائلة:

- من أجل هذا نحب الشعر، فهو يتناول أشياء غير حقيقية ويجعلها تبدو ليس فقط أفضل بل أشد حقيقية من الأشياء الحقيقية...

"فليس في وسعها ألا تحب"

...هو ذاك، فالقلب قد يفضل ألا يحب، ولكن لا حيلة له إلا أن يحب.

وصمتت من جديد، ثم قفزت فجأة على قدميها، قائلة:

- تعالَ، إن مايدانوف جالس مع أمي، وقد أحضر لي قصيدته، فتركته وخرجت. إنه مضطرب الفؤاد، هو أيضًا. ولكن ما باليد حيلة، في يوم من الأيام ستعرف كل شيء... فلا تغضب مني الآن.

وضغطت زنيدا على يدي ضغطة سريعة، ثم انطلقت جارية. وعدنا إلى الجناح معًا. فأخذ مايدانوف يتلو قصيدته "السفاح" التي كانت قد صدرت من يوم أو يومين، ولكني لم أصغ إليه. وكان يلقي قصيدته ذات التفاعيل الأربع كما لو كان يلقي خطابًا مؤثرًا، في صوت رتيب، فتتناوب القوافي مجلجلة كأجراس مَرْكَبة الجليد، مطنطنة جوفاء، على حين كنت أتفرس في وجهه محاولًا التوصل إلى كنه ماقالته لي.

وصاح مايدانوف فجأة منشدًا بصوت أحن:

أو هل هو غريم أجهله

أوقعت فجأة في حبائله؟

فالتقت عيناي ومقلتاها، فغضت بصرها، على حين تصاعد الدم إلى وجنتيها... ورأيتها تحمر خجلًا، فجمدت فرقًا. لقد كنت أغار عليها من قبل، ولكنه لم يخطر ببالي قط أنها قد تقع هي في حبل الغرام. "ويحي! إنها عاشقة!"

وقد بدأ عذابي الحقيقي من تلك اللحظة فقط. أخذت أقدح زناد ذهني، وأقلب الأمور على وجوهها، وأراقب زنيدا بلا انقطاع، خلسة بقدر المستطاع. وكان من الواضح الجلي أن شيئًا جديدًا قد طرأ عليها. فقد أصبحت تخرج للتمشي ساعات طويلة بمفردها. وأحيانًا كانت تعتصم ساعات بغرفتها، محجمة عن مقابلة زوارها. ولم يكن ذلك مألوفاً منها. وغدوت فجأة، أو على الأقل خيل إليَّ ذلك، على قدر بالغ من الفطنة والتبصر. فطفقت أتساءل في قلق، وأنا ألقي نظرات الارتياب على المعجبين واحدًا تلو الآخر: "هل هو هذا، أو ذاك؟" وقد بدا لي أن الكونت ماليفسكي (ولو أن هذا الظن قد جعلني أخجل لزنيدا) هو أخطرهم جميعًا.

ولا ريب أني لم أكن شديد الدهاء، فلم يكد يخدع تكتمي أحدًا. وسرعان ما أدرك الدكتور لوشين، هو على الأقل، ما يدور في نفسي. ولكنه، هو أيضًا، كان قد تغير تغيرًا كبيرًا في الأيام الأخيرة، إذ نحف بدنه، وبالرغم من أن ضحكه لم يقل، فقد أصبح ضحكًا أجوف مريرًا مقتضبًا، واختفت سخريته الرقيقة وتهكمه المصطنع، وحلت مكانهما حدة عصبية كان يبدو أنه غير قادر على كبحها.

وقال لي مرة ونحن على انفراد في غرفة الاستقبال بمنزل زاسكين (فقد كانت الأميرة الشابة لم تعد بعد من نزهتها، ولكن صوت أمها المجلجل كان يبلغ آذاننا من النافذة وهي تعنف خادمتها): ما الذي يجعلك تكثر التردد هكذا على هذا المنزل يا غلام؟ ينبغي لك أن

تدرس وتجد وأنت صغير... وماذا تظن أنك تفعل؟ فأجبته محاولًا أن أبدو متشـامخًا، دون أن أفلح إلا في الكشف عن ارتباكي:

- ما الذي ينبئك أني لا أدرس في البيت؟

- أتظن أني غافل؟ كلا، كلا، ليس هو الجد ما يشغل ذهنك. إني لا أريد مجادلتك... ففي سنك هذا أمر طبيعي. ولكنك أسأت الاختيار. ألا ترى أي نوع من الأسرات هي ذي؟

فقلت:

- لا أظن أني فهمت ما تعنيه.

ـ ألم تفهم؟ ويلك! ولكني أعتقـد أنـه مـن واجبـي أن أحـذرك. إن العـزاب المخضرمـين مـثلي يمكنهم التردد على هـذا المكـان دون خـوف علـيهم. فـنحن قـوم تصـلبت عيـدانهم، ولا شيء يؤذيهم، ولكنك لا زلت رقيق البشرة. والجو هنا يضرك، صدقني، فقد تصاب بالعدوى.

ـ ماذا تعني؟

- سأخبرك بما أعنيه. هل ترى أن حالتك الحاضرة حالة سليمة. هل هي طبيعية؟ هـل تعتقـد حقًّا أن كل ما تمر به الآن صالح لك؟ هل تعتقد ذلك؟

فسألته، بالرغم من أنني كنت أعلم في أعماق نفسي أنه كان على صواب:

- لماذا؟ ما الذي أمر به الآن؟

فمضى الدكتور قائلًا، وهو يشدد على الكلمات كما لو كانت تنطوي على شيء شـديد الإهانـة لنفسي:

- ياغلام، ياغلام! إن الدبلوماسية ليسـت مـن مواهبـك. فوجهـك _والحمـد لله_ لم يـزل مـرآة روحك، ولكن ما فائدة الكلام؟ فما كنت لأتردد على هذا المكان لو لم أكن... (وهنا أخذ يحـرق الأرم) لو لم أكن أنا نفسي أحمق من النوع عينه. ولكن هنـاك شـيئًا لا يمكننـي إلا أن أتعجـب منه: وهو أن شخصًا ذكيًّا مثلك يمكنه أن يبقى غافلًا عما يجري هنا.

فسألته، وقد أرهفت أذني:

- ما الذي يجري؟

فحدجني الدكتور بنظرة عطف غريب. ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- إني إنسان طيب القلب، بالرغم من كل شيء!

ثم أردف يقول رافعًا صوته:

- ما الذي يرغمني على أن أخبره؟ إني أكرر القول: هذا الجو مضر بك... قد يروقك، ولكـن مـا أهمية ذلك، فالدفيئة[8] تفوح أيضًا برائحة زكية، ولكنك لا تستطيع الحياة في دفيئة. أصغ إليَّ يا صديقي، عد إلى دراستك.

وفي هذه اللحظة جاءت الأمـيرة العجـوز لتشـكو إلى الـدكتور وجعًـا في أسـنانها. وبعـد ذلـك ظهرت زنيدا.

[8] بيت لتربية النباتات بالحرارة الصناعية.

فقالت أمها:

- ها هي ذي، وبخها يا دكتور توبيخًا شديدًا. فهي تشرب ماء مثلجًا طيلة النهار. هل يحسن ذلك بها مع صدرها الضعيف؟

فسألها الدكتور:

- لماذا تفعلين ذلك؟

- وما ضرر ذلك؟

- ضرر؟ قد تصابين بالبرد فتموتين.

ـ أصحيح هذا حقًّا؟ حسن، فأنا لا أبالي إن وقع ذلك.

فتمتم الدكتور قائلًا:

- هذا إذن هو الحال.

فغادرت أمها الغرفة. وقالت زنيدا.

ـ نعم، هو الحال. وهل الحياة شيء يروق، مهما بلغت من أمر؟ انظر حواليك... هل الأشياء تسر؟ أتظن أني لا أفهم، ولا أشعر؟ إن شرب الماء المثلج يلذ لي، وإذا بك تأتي لتؤكد لي في جد بالغ أنه لا ينبغي لي المخاطرة بحياتي، وهي على هذه الحال، من أجل لحظة من اللذة_ولا أقول السعادة.

فقال لوشين:

- فهمت، النزوات والاستقلال، هاتان الكلمتان تلخصان شخصيتك_فطبيعتك كلها في هاتين الكلمتين.

فضحكت زنيدا في صوت عصبي، ثم قالت:

- إنك متأخر يا عزيزي الدكتور إنك ضعيف الملاحظة، ولا تساير الزمن. ضع نظارتيك وسترى أني لست الآن في حالة تسمح لي بالانغماس في النزوات. إنه لمن الممتع جدًّا أن أعبث بكم جميعًا، وأنا في جملتكم. أما عن الاستقلال... وتوقفت ثم قالت فجأة، وهي تضرب الأرض بقدمها الصغيرة.

ـ يا سيد فولدمار! دع عنك هذا الوجه الكئيب، إني لا أطيق أن يرثى لحالي!

وانصرفت مهرولة.

فقال الدكتور لوشين مكررًا عبارته:

- إن هذا الجو مضر بك، ياغلام، مضر جدًّا...

وفي ذلك المساء، اجتمع الضيوف المعهودون في منزل أسرة زاسكين، وكنت من بينهم.

ودار الحديث حول قصيدة مايدانوف، فأثنت زانيدا عليها في إخلاص، ثم قالت:

- ولكني سأقول لكم ما يدور بذهني: لو كنت من الشعراء، لاخترت موضوعات تختلف عن هذه كل الاختلاف. وربما كان كل

ذلك لا قيمة له، ولكن أفكارًا غريبة تخطر ببالي، وبخاصة عندما لا أستطيع النوم، قبيل طلوع الفجر، عندما تصطبغ السماء بلوني الورد والرماد. فمثلا... ولكني أخشى أن تضحكوا مني!

فصحنا جميعًا في نفس واحد:

- كلا! لن نضحك!

فمضت تقول، وقد طوت ذراعيها وأخذت تنظر بعيدًا في الفضاء.

ـ كنت أصف جماعة من صغار الفتيات في مركب عظيم بالليل على جدول هادئ. والقمر ساطع، وهن جميعًا في ثيات بيضاء، وعلى رءوسهن أكاليل من الأزهار البيضاء، وبغنين ترنيمة أو شيئًا من هذا القبيل.

فقال مايدانوف متشدقًا، محاولًا في آن واحد أن يبدو كالحالم وأن يضفي على كلماته مغزًى جليلًا:

- هو ذاك، هو ذاك... واصلي الحديث.

ـ وفجأة: ضوضاء وضحك ومشاعل وصوت طبل على الشاطئ... جمع متزاحم من أتباع إله الخمر يأتي راكضًا، مغنيًا، صاخبًا. وعليك أنت أيها الشاعر أن تصف هذه الصورة... غير أني أحب أن تكون المشاعل حمراء قانية ويتصاعد منها دخان كثيف، وأن تلمع عيون الأتباع تحت الأكاليل، ويجب أن تكون الأكاليل نفسها قائمة. ولا تنس جلود النمور والأقداح والذهب، كميات هائلة من الذهب...

فسألها مايدانوف، وهو يهز رأسه دافعًا بشعره المستقيم إلى الوراء، وقد تمدد أنفه:

- وأين ترين أن يوضع الذهب؟

- أين؟ على الأكتاف والأذرع والسيقان، وفي كل مكان، ويقال: إن النساء كن يتزين بخلاخل من الذهب في سالف الأزمان. وينادي أتباع إله الخمر الفتيات اللواتي في القارب. وكن قد توقفن عن الغناء _فهن عاجزات عن مواصلته_ ولكنهن يجلسن بلا حراك. وقد أخذ التيار يجرفهن نحو الشاطئ. وبغتة تقف إحداهن في رفق. هذا يحتاج إلى وصف بارع: طريقة قيامها في هدوء، والذعر الذي يستولي على رفيقاتها... وتخطو فوق حافة المركب، فيلتف بها أتباع إله الخمر، ويحملونها بعيدًا، في قلب الليل، في قلب الظلام... وأستطيع أن أتصور الدخان، سحب الدخان، والاضطراب... ووسط كل ذلك صرخات الأتباع، وإكليلها الأبيض ملقًى عل الشاطئ.

وتوقفت زنيدا عن الحديث، فقلت لنفسي:

- إنها عاشقة.

وسألها مايدانوف:

- أهذا كل مافي الأمر؟

- هذا كل ما في الأمر.

فقال مايدانوف ملاحظًا في تشدق:

- لا يصلح هذا موضوعًا لقصيدة طويلة، ولكني قد أستخدم الفكرة في تأليف غنائي.

فسأله ماليفسكي:

- على الأسلوب الرومانتيكي؟

- على الأسلوب الرومانتيكي طبعًا، البيروني.

فقال الكونت الشاب، ملقيًا عبارته في استهتار:

- إني أفضل فكتور هوجو على بيرون، فهو أمتع.

فقال مايدانوف:

- إن فكتور هوجو كاتب من الطراز الأول. وصديقي نونكوشييف، في قصته الإسبانية "الترافادور"...

فقاطعته زنيدا قائلة:

- أتعني الكتاب ذا علامات الاستفهام المقلوبة رأسًا على عقب؟

- نعم، فهذه عادة لدى الإسبان. كنت أقول إن تونكوشييف... فقاطعته زنيدا مرة أخرى قائلة:

- أوه، هأنتم ستبدءون التجادل من جديد حول الكلاسيكية والرومانتيكية! من الأفضل أن نلعب لعبة ما...

فسألها لوشين:

- الغرامات؟

- كلا! لقد سئمت "الغرامات"، دعنا نلعب التشبيهات (وكانت هذه لعبة من اختراع زنيدا: فكان يختار شيء ما، وكان على كل منا أن يبتكر تشبيهًا له وصاحب أبرع تشبيه يفوز بجائزة).

واتجهت زنيدا إلى النافذة. وكانت الشمس قد غربت من برهة وجيزة، وقد امتدت في السماء سحب عالية بلون القرمز.

وسألتنا زنيدا:

- ماذا تشبه هذه السحب؟

ودون أن تنتظر جوابًا من أحد، انطلقت تقول:

- في رأيي أنها تشبه القلاع القرمزية على سفينة كليوباترا الذهبية، عندما أبحرت لمقابلة أنطونيو. لقد حكيت لي قصتها من زمن غير بعيد، يا مايدانوف، أتتذكر؟

فقررنا جميعًا على الفور، مثل بولونيوس، أن السحب تشبه تلك القلاع سواء بسواء، وأنه لم يكن في وسع أحد التوصل إلى تشبيه أفضل وأبدع...

فسألتنا زنيدا:

- كم كان عمر أنطونيو عندئذ؟

فأجابها ماليفسكي قائلًا:

- كان شابًّا صغيرًا، على الأرجح.

وقال مايدانوف مؤكدًا:

- نعم، لقد كان صغيرًا.

فقال لوشين:

- أستسمحكم العذر، لقد كان فوق الأربعين.

فرددت زنيدا عبارته، حادجة إياه بلمحة خاطفة:

- فوق الأربعين!

وبعدئذ انصرفت إلى داري، وأنا أهمس بالرغم عني:

- إنها عاشقة، ولكن من عشيقها؟

وتوالت الأيام، وزنيدا تزداد يومًا بعد يوم غرابة وغموضًا. ودخلت حجرتها مرة فوجدتها جالسة على كرسي من "القش"، ورأسها هاوٍ على الحافة الحادة من المنضدة. فلما انتصبت، رأيت خديها وقد خضلتهما الدموع.

وقالت، وهي تبتسم مغيظة:

- أوه، أهو أنت. تعالَ!

فذهبت إليها. فوضعت يدها على رأسي، وأمسكت بخصلة من شعري وأخذت تبرمها بشدة.

فقلت لها آخر الأمر:

- إنك توجعينني.

فقالت:

- أوه، هل يوجعك ذلك؟ وهل تظن أني لا أتألم؟ وصاحت فجأه إذ رأت أنها قد اقتلعت خصلة من الشعر من جذورها:

- أوه! انظر ماذا فعلت! ياسيدي فولدمار المسكين! وأخذت تملس الخصلة في عناية، ثم لفتها على إصبعها، جاعلة منها خاتمًا.

وقالت وعيناها تتألقان بالدموع:

- سأضع شعرك في قفل قلادتي، وألبسها على صدري. لعل ذلك يهون عليك... والآن، اذهب!

وعندما عدت إلى البيت وجدته مضطربًا. فقد كانت تجري مشادة بين أبي وأمي. كانت تلومه على شيء ما، على حين كان هو، على عادته، محتفظًا بهدوئه في أدب وبرود. ثم لم يلبث أن بارح الدار. ولم يمكنني أن أسمع ما قالته أمي، ثم إنه كان لدي أشياء أخرى تشغل ذهني. كل ما أتذكره أنه بعد هذه المشادة، استدعتني أمي في حجرتها وأعربت لي عن استيائها لترددي على الأميرة، وهي في رأيها

امرأة لا تتحرج من شيء[9] فلثمت يدها (وكنت ألجأ إلى ذلك دائمًا عندما أرغب في قطع حديثها) وذهبت إلى غرفتي. وكانت دموع زنيدا قد أوقعتني في حيرة شديدة، فلم أدرِ على أي وجه أنظر إليها، وتهيأت أنا نفسي لأن أجهش بالبكاء. فالبرغم من بلوغي السادسة عشرة كنت لم أزلْ طفلًا. ولم أعد أفكر في ماليفسكي، ولو أن بيلوفروزوف كان يزداد وحشية يومًا بعد يوم، ويحملق في الكونت الأنيق كما يحملق الذئب في الحمل الوديع. والواقع أني لم أفكر في شيء ولا في أحد، فقد تاه فكري في الظنون والأوهام وأخذت أنشد الأمكنة التي أستطيع أن أخلو فيها إلى نفسي. وقد أولعت ولعًا خاصًا بالدفيئة المتهدمة، فكنت أتسلق جدارها العالي وأجلس هنالك، وحيدًا حزينًا، شاعرًا بحسرة لا حد لها على نفسي، ولكم كنت أستطيب هذه الإحساسات الشجية، ولكم كنت أنغمس فيها وفي ذات يوم كنت جالسًا على الجدار، أنظر إلى الأفق البعيد، وأصغي إلى دقات جرس الكنيسة... وإذا بي أشعر فجأة كأن شيئًا يزحف على جلدي. لم يكن هو نسيمًا عابرًا، ولم تكن قشعريرة، بل كان إحساسًا بأن شخصًا ما يقترب مني... فنظرت إلى أسفل، فرأيت زنيدا تهرول في الطريق في ثوب رمادي فاتح. ورأتني هي أيضًا فوقفت ولوت حافة قبعتها إلى أعلى، ورفعت إليَّ عينيها الناعستين.

[9] Une femme capable de tout

ثم سألتني وهي تبتسم ابتسامة غريبة:

- ماذا تفعل هنالك في علاك؟... إنك تؤكد لي دائمًا أنك تحبني، فإن كنت تحبني حقًّا، فاقفز هابطًا إلى هنا.

فما كادت تلفظ هذه الكلمات حتى هويت وكأني دفعت من الخلف. وكان الجدار يبلغ ارتفاعه نحو أربعة عشر قدمًا. فنزلت على قدمي، ولكن الصدمة كانت من العنف بحيث لم استطع البقاء واقفًا فسقطت فاقد الوعي برهة من الزمن. وعندما أفقت، شعرت وأنا لم أزل مغمض العينين بوجود زنيدا بقربي. وسمعتها تقول وهي تحنو علي: "أيا حبيبي!" وقد نمت نبرات صوتها على القلق والمحبة. "كيف أمكنك أن تفعل شيئًا من هذا القبيل؟ لماذا أصغيت إليَّ؟ إنك تعلم أني أحبك! فلتستيقظ!"

وكنت أشعر بخفقات صدرها قريبة مني، ويديها تلمسان رأسي، ثم _ويحي!_ ثم هوت بشفتيها الناعمتين الغضتين تمص وجهي بقبلاتها، بل لقد مست شفتاها شفتي... ولكن زنيدا لا بد أنها أدركت، من التعبير المرتسم على وجهي، أني لم أعد فاقد الوعي، فقد نهضت بغتة، وهي تقول:

- قم أيها العفريت الصغير، أيها المخلوق المجنون! لاترقد هكذا في التراب!

فنهضت على قدمي. فقالت:

ـ أعطني مظلتي. انظر أين وقعت مني! ولا تحملق في هكذا... هذا حمق! هل أصابك أذي؟ أظن أن أعشاب القريص قد لذعتك! قلت لك لا تحملق فيَّ هكذا!...

ثم أردفت، وكأنها تقول لنفسها:

- ولكن ها هو ذا لا يسمعني، ولا يستطيع حتي أن يجيبني! عد الآن إلى البيت، يا سيد فولدمار، ونظف ملابسك، وإياك أن تتبعني، وإلا غضبت منك، ولن... ولكنها ابتعدت مسرعة دون أن تكمل عبارتها، على حين جلست أنا على جانب الطريق، لأن ركبتيَّ كانتا ترتجفان. وكانت يداي قد لذعتهما أعشاب القريص، وكان ظهري يؤلمني، ورأسي تميد به الأرض، ولكني لم أشعر قط منذ ذاك بنعيم يضاهي ما كنت أشعر به حينئذ. كان يخالجني كأم عذب في جميع أطرافي، ثم تفجر في قفزات وصيحات حماسية. فالحق أني كنت لا زلت صبيًّا...

ومكثت فخورًا جذلًا طيلة ذلك اليوم، فقد كان الإحساس بقبلات زنيدا لا يزال حيًّا على وجهي، واستعدت في ذهني كل كلمة قالتها لي وأنا أهتز نشوة، واحتضنت هذا الحظ السعيد المفاجئ في حب مفرط حتى لقد كاد يتولاني الرعب، وبت لا أريد حتى رؤيتها _وهي منبع كل هذا الجديد من الأحاسيس_ فقد شعرت كأني لم يعد لي مطلب من القدر، وكأنه قد آن لي أن "ألفظ النفس الأخير وأموت". ولكني في اليوم التالي، عندما خرجت متوجهًا إلى الجناح،

شعرت بتهيب شديد، فحاولت عبثًا أن أخفي هذا الشعور تحت ستائر من الألفة الوديعة، مرتئيًا أنها تليق بشخص يرغب في البرهنة على أنه خليق بكتمان الأسرار. واستقبلتني زنيدا على عادتها، دون أدنى دلالة على التأثر، قانعة بهز أصبعها إليَّ، وسؤالي: ألم أكن قد أصبت برضة ما؟ ففارقني على الفور مظهر الألفة والتكتم، وتبخر معه وجلي وتهيبي. ولم أكن أتوقع طبعًا أن تستقبلني بأية مظاهرة حماسية، غير أن ما استقبلتني به زنيدا من هدوء عمل فيَّ عمل "الدش" البارد: لقد أدركت أني إلا طفلًا في عينيها، ولكم أحزنني هذا الشعور، ومضت زنيدا تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وتمنحني ابتسامة عابرة كلما وقعت عيناها علي، ولكن أفكارها كانت بعيدة عني. وقلت لنفسي: "هل أثير حكاية الأمس أنا نفسي؟ وأسألها أين كانت ذاهبة وهي تسارع هكذا الخطا، لمجرد تبديد ما يخامرني من شكوك؟..." ولكنني نبذت هذه الفكرة، وجلست هادئًا في زاوية مظلمة من أركان الغرفة.

ثم دخل بيلوفروزوف، فسررت في الواقع لرؤيته.

وقال في تهجم:

- إني لم أستطع العثور على فرس يليق بك، وقد يكون "فرايتاج" أهلًا لذلك، ولكني غير واثق من طبعه. إني خائف.

فسألته زنيدا:

- وممَ تخاف؟ اشرح لي من فضلك:

- الواقع أنك لاتقدرين حقًّا على ركوب الخيل. فلنفرض أنه حدث لك شيء ما، لا قدر الله، وما الذي يجعلك تريدين فجأة ركوب الخيل؟

- ليس هذا من شأنك أيها السيد الوحش العزيز. ولكن في وسعي طبعًا أن أطلب ذلك من بيوتر فازيلييفتش... (وكان هذا اسم أبي، فذهلت للسهولة والاستهانة التي استخدمت بهما هذا الاسم، وكأنها على يقين تام من استعداد أبي لإرضاء رغبتها).

فقال بيلوفروزوف:

- فهمت، إذن فهو هو الذي تريدين أن تركبي الخيل في صحبته!

ـ لا يعنيك سواء أركبت في صحبته أم في صحبة شخص آخر، فلن أصحبك أنت على أية حال.

فرد بيلوفروزوف قائلًا:

- لن تصحبيني... كما تشائين. حسنًا، سأحضر لك حصانًا.

ـ واحرص على أن يكون حصانًا، لابقرة. فإني أنذرك أني أبغي الركض به.

ـ فلتركضي إذن! أهو ماليفسكي من تريدين الرمح معه؟

- ولم لا يكون مع ماليفسكي، ياجندي الباسل؟ ولكن هدئ من روعك، ولا تحملق هكذا في وجهي، سآخذك معي أنت أيضًا.

أفهمت الآن مكانة ماليفسكي عندي! (وهزت رأسها دافعة بشعرها إلى الوراء.)

ـ إنك لاتقولين ذلك إلا لتعزيتي.

ـ وهل هذا يعزيك؟ أوه، أيها... الجندي!

وقد تلفظت بهذه الكلمة الأخيرة، وكأنها لم تستطع العثور على صفة أخرى تطلقها عليه. ثـم التفتت إليَّ وقالت:

- وأنت يا سيد فولدمار، أترغب في المجيء معنا؟

فتمتمت قائلًا، غير متجاسر على رفع عيني:

- أنا... أنا لا أحب أن أكون في صحبة قوم عديدين:

ـ أوه، إنك تفضل أن تختلي بي أليس كذلك؟ حسنًا حسنًا، كلٌّ تبع هواه. (وتنهدت) امضِ إذن يا بيلوفروزوف، وانظر ماذا يمكنك أن تفعل. إني أريد الحصان غدًا.

فتدخلت الأميرة العجوز قائلة:

ـ ومن أين ستحصلين على النقود؟

فقطبت زنيدا جبينها قائلة:

- لن أطلب منك. بيلوفروزوف سيأتمنني.

فدمدمت الأميرة قائلة:

- يأتمن... يأتمن... (وصاحت فجأة بأعلى صوتها):

دنياشكا!

فاعترضت على ابنتها قائلة:

- ماما! لماذا إذن أعطيتك جرسًا؟

ولكن المرأة العجوز نادت من جديد!

– دنياشكا!

واستأذن بيلوفروزوف منصرفًا، فخرجت معه... ولم تحاول زنيدا أية محاولة لإبقائي...

واستيقظت مبكرًا في الصباح التالي، واقتضبت لنفسي عصًا، وذهبت أتجول خارج أبواب البلدة. فقد قلت لنفسي لأخرج وأحاول إزاحه الغمة عن صدري. وكان يومًا جميل الطقس، صافيًا وليس بشديد الحرارة. وكان هناك نسيم عليل يبعث النشاط، يحف في مرح لطيف، فيهز الكائنات جميعًا دون أن يزعج شيئًا. فتجولت برهة طويلة فوق التلال وخلال الغابات، ولكني لم أشعر بسعادة، لأني كنت قد خرجت وأنا مصمم في الواقع على الاستسلام للأشجان. غير أن الشباب، والطقس الجميل، والهواء العليل، ولذة المشي السريع، ومتعة الراحة على انفراد على العشب الكثيف، كل ذلك كان له مفعوله. لقد غمرت الذكريات نفسي من جديد: تلك الكلمات التي

لا تنسى، وتلك القبلات، وتولاني شعور بالغبطة عندما أخذت أفكر في أن زنيدا لن يمكنها أن تنكر أنه لا تنقصني العزيمة ولا الشجاعة... "إنها تفضل الآخرين عليَّ. حسنًا حسنًا، ولكن الآخرين يتحدثون دائمًا عما قد يفعلونه، أما أنا فقد قمت بعمل، وهذا لم يعد شيئًا بالقياس إلى ما في قدرتي أن أفعله من أجلها..."

وأطلقت العنان لخيالي، فتصورت نفسي أخلصها من أيدي الأعداء، ورأيت نفسي غارقًا في الدماء وأنا أنقذها من سجن مظلم، ثم أموت عند قدميها. وتذكرت صورة الملك العادل وهو يحمل ماتيلدة فارًّا بها على حصانه، هذه الصورة التي كانت معلقة على جدار غرفة الاستقبال، ثم استرعى انتباهي نقار أرقط عريض، وهو يهبط في جلبة على جذع شجرة قانٍ، فيطل تارة على اليمين وتارة على اليسار، مثل عازف على طبلتين يجلس خلف آلته.

وبعد ذلك، غنيت أغنية "لم تكن هي الثلوج البيضاء"، ثم انتقلت منها إلى رواية شعرية كانت شائعة في ذلك الوقت: "إني أنتظرك، على حين أن النسيم اللعوب...". ثم أخذت أنشد بصوت مرتفع خطاب "يرماك" إلى النجوم في تراجيدية "خومياتوف". وحاولت أن أنظم أنا نفسي شيئًا من الشعر العاطفي، بل لقد بلغ بي الأمر أني قرضت الشطر الأخير من القصيدة: "أوه، زنيدا، زنيدا!" ولكن محاولتي لم تثمر شيئًا. ثم اقتربت ساعة الغداء، فهبطت الوادي الذي كان يتلوى

خلاله طريق يصل إلى البلدة. وبينما كنت أسير في الطريق سمعت حوافر خيل تركض خلفي فما إن نظرت ورائي، حتى توقفت عن غير قصد ورفعت قبعتي، فقد كان الراكبان هما زنيدا ووالدي. وكانا يسيران جنبًا إلى جنب. وكان أبي يتحدث إليها مائلًا عليها من فوق سرجه، في حين ظلت يده على عنق الحصان. وكان يبتسم، في حين كانت زنيدا تصغي إليه في صمت، خافضة العينين في جد، شادة على شفتيها. ولم أرَ غيرهما في أول الأمر، ولكني لمحت بعد هنيهة بيلوفروزوف، الذي كانت تخفيه التواءة من التواءات الطريق، راكبًا حصانًا جموحًا أدهم، ومرتديًا شكة الخيالة ومعطفًا مزينًا بالفرو. وكان جواده يحرك رأسه ناخرًا متوثبًا، على حين كان راكبه يشد عنانه ليكبحه ويحفزه على السير بمهمازيه في آن واحد. وارتددت إلى جانب الطريق. وأمسك أبي العنان بيديه، وابتعد عن زنيدا، فصوبت إليه نظرة وانية ثم ركضا كلاهما مارين بي، فانطلق بيلوفروزوف خلفهما، وسيفه يقعقع... فقلت لنفسي: "إنه كجراد البحر حمرة. وهي: لم هي شاحبة هكذا؟ أتركب الخيل طيلة الصباح، ويشحب وجهها؟"

وسارعت الخطا، فوصلت إلى البيت في موعد الغداء تمامًا. وكان أبي قد غير ثيابه، وجلس منتعشًا بعد اغتساله بجانب مقعد أمي يقرأ لها مقالًا في جريدة (المناقشات) بصوته المتزن الرخيم. وكانت أمي تصغي شاردة البال، وسألتني بمجرد وصولي: ماذا كنت أفعل

طيلة ذلك الوقت، قائلة إنها تكره القوم الذين لا يعلم إلا الله أين، ولا مع أي رفاق يذهبون؟ وأوشكت أن أقول لها: إني كنت أتمشي بمفردي، ولكن نظرة إلى أبي جعلتني أمسك لساني.

ولم أكد أرى زنيدا خلال الأيام الخمسة أو الستة التالية. فقد تظاهرت بالمرض، ولكن ذلك لم يمنع زوار الجناح المعهودين من الذهاب لتأدية واجبهم، كما كانوا يقولون، جميعهم باستثناء مايدانوف الذي كان يتولاه دائمًا القنوط وتخور عزيمته بمجرد أن يفتقد مصدر حماسته. وكان بيلوفروزوف يجلس في زاوية الغرفة متجهمًا محتقن الوجه مزررًا سترته حتى العنق. أما الكونت ماليفسكي فكانت ترفرف دائمًا على قسمات وجهه الرقيقة ابتسامة ساخرة. فقد كانت العلاقات بينه وبين زنيدا على أسوإ مايكون، فأصبح شديد الحرص على إرضاء الأميرة العجوز، حتى لقد استأجر مرة عربة ليصحبها إلى الحاكم العام، ولكن الزيارة لم تثمر شيئًا بل أدت إلى تنكيد ماليفسكي نفسه، حيث ذكروه بحادث سابق اشتراك فيه وعدد من ضباط المدفعية، ولم يكن لديه حجة إذ ذاك للدفاع عن نفسه سوى قلة درايته. وأما لوشين فكان يزور المنزل مرة أو مرتين في اليوم ولكنه كان لا يمكث قط غير برهة وجيزة. وكنت قد أصبحت أخاف منه منذ حديثنا الأخير، ولكني أخذت في الوقت نفسه أنجذب إليه انجذابا حقيقيًّا، وصحبني مرة إلى حدائق نسكوتشي، وكان لطيفًا رقيقًا معي، فأخذ يخبرني بأسماء شتى النباتات والأزهار وخصائصها، وإذا به يتوقف عن حديثه فجأة،

ويخبط على جبهته، ثم يصيح على غير توقع البتة: يا لي من أحمق: لقد حسبتها فتاة لعوبًا، ولكن يبدو أن هناك قومًا يلذ لهم تضحية أنفسهم.

فسألته:

- ماذا تعني بذلك؟

فأجابني في حدة:

- لا شيء، بالنسبة لك على أية حال!

ـ وكانت زنيدا تتجنبني. ولم يكن من الممكن ألا ألاحظ أن رؤيتي كانت تضايقها، بل كان يبدو أنها تلوي وجهها عني بصورة غريزية، وهذا هو ما كان يؤلمني ويصعب علي تحمله. ولكن لم يكن في الوسع حيلة، فقد اجتهدت في تحاشي نظرتها، قانعًا بمراقبتها من بعيد، ولكني لم أنجح دائمًا في ذلك. على أنه كان هناك شيء غامض يجري في باطنها: فلم يعد وجهها ذاك الوجه المعهود، بل لقد تغير سلوكها في جملته وتفاصيله. وقد تكشف هذا التغير بصورة جلية ذات مساء ساكن دافئ، حيث كنت أجلس على دكة منخفضة تحت شجيرة بيلسان وارفة الأغصان. وكان هذا المكان أحد أمكنتي المختارة، إذ كنت أستطيع من هناك أن أرى نافذة زنيدا. وبينما كنت أجلس، كان عصفور صغير يتنقل بين الأوراق القاتمة فوق رأسي، ومطت قطة رمادية ظهرها ثم انسلت زاحفة إلى الحديقة، وكان بعض

الجعلان المبكرة تملأ الفضاء بصريرها الطنان، وكان هذا الفضاء لا يزال شفافًا بالرغم من حلول الظلام. وجلست أنظر إلى النافذة، أملًا في أن تنفتح، وسرعان ما انفتحت بالفعل على مصراعيها، وظهرت زنيدا في إطارها. وكانت تلبس ثوبًا أبيض، وكانت هي نفسها _وجهها وكتفاها وذراعاها_ تكاد تضارع في بياضها بياض الثوب. ووقفت برهة طويلة بلا حراك، وهي تنظر مقطبة الجبين أمامها في ثبات. ولم أكن قط قد رأيتها تحملق على هذا النحو. وبعد ذلك ضمت يديها بشدة ورفعتهما إلى شفتيها ثم إلى جبهتها، وبعدئذ بسطت أصابعها فجأة ودفعت شعرها خلف أذنيها وهزت رأسها ثم أومأت به دفعة واحدة في عزم، وأغلقت النافذة في شدة. وبعد ذلك بثلاثة أيام التقينا صدفة في الحديقة، فأردت أن أنحرف بعيدًا عنها، ولكنها أوقفتني وقالت لي بلهجتها اللطيفة القديمة:

- تعالَ وأعطني يدك. إننا أنا وأنت لم يَدُر بيننا حديث ظريف منذ عهد بعيد.

فنظرت إليها، فرأيت عينيها تسطعان بضياء رقيق، وبدت كأنها تبتسم من وراء ضباب خفيف.

وسألتها:

- أفلا زلت متوعكة؟

فقالت، وهي تقطف وردة صغيرة حمراء:

- كلا، كلا، لقد انتهى كل ذلك. ولم أزل متعبة قليلًا، ولكن ذلك سيزول هو أيضًا.

فسألتها:

- وهل ستصبحين كما كان عهدي بك من قبل؟

فرفعت زنيدا الزهرة إلى وجهها، فلاح لي أن لونها المتوهج قد انعكس على خديها.

لماذا، هل تغيرت؟

فقلت في هدوء:

- أجل.

فقالت زنيدا:

- لقد كنت شنيعة معك، أنا أعرف ذلك، ولكن كان ينبغي ألا تلقي بالًا... فلم يكن بوسعي حيلة... ولكن ما جدوى التحدث عن هذا الموضوع؟

فصحت متجهمًا، مطلقًا العنان لنزوة طارئة:

- إنك لا تريدين أن أحبك، هذا هو الموضوع!

ـ بلى، إني أريد ذلك. ولكن بغير الطريقة التي كنت تحبني بها من قبل.

ـ وكيف إذن؟

- دعنا نكون أصدقاء.

ورفعت زنيدا الوردة أمامي لأشمها، ثم أردفت تقول:

- إني أكبر منك سنًّا بكثير، وكان يمكن أن أكون عمتك، أو أختك الكبيرة، إن شئت. وأنت...."

ـ وأنا مجرد طفل في عينيك...

ـ طبعًا، ولكنك طفل ذكي طيب ظريف، أحبه حبًّا جمًّا. أصغِ إليَّ، إني أعينك من اليوم وصيفًا لي، ولا تنسَ أنه من واجب الوصيف ألا يترك ملكته أبدًا. ها هي ذي شارتك (ووضعت الوردة في عروة سترتي). وهي برهان على رضانا عنك.

فتمتمت قائلًا:

- لقد قدمت براهين أخرى على رضاك من قبل...

فقالت زنيدا:

- أوه، يا لقوة ذاكرته، حسنًا، لا مانع من أن أقدم لك برهانًا الآن...

ومالت عليَّ. وطبعت قبلة صافية هادئة على جبيني.

فلم أحر جوابًا غير النظر إليها، على حين استدارت هي قائلة:

- اتبعني يا وصيفي.

وسارت متجهة نحو الجناح، وأنا أفكر قائلًا لنفسي: "أيمكن أن تكون هذه الفتاة الحساسة اللطيفة هي زنيدا التي كنت أعرفها من قبل؟" فحتى مشيتها بدت لي أهدأ عندئذ، وقدها أشد جلالًا ورشاقة.

ولكن، لعمري، كم تأجج حبي لها!

وبعد العشاء، اجتمع الضيوف المعتادون في الجناح، فخرجت الأميرة الشابة من غرفتها لاستقبالهم. وقد اكتمل شملهم، بالتمام، كما كانوا في تلك السهرة الأولى التي لا تنسى. وحتى نيرماتسكي جر نفسه إلى هنالك. وكان مايدانوف أول من وصل هذه المرة، وقد حمل معه قصيدة جديدة. ولعبنا لعبة الغرامات من جديد. ولكن بغير ما ألفناه سابقًا من صخب ومزاح وهرج، حيث زال من قصفنا العنصر النوري (الغجري)، فقد أدخلت زنيدا روحًا جديدة على الحفل. وجلست بجوارها باعتباري وصيفها.... وكان من بين العقوبات التي اقترحتها أن يروي الشخص الذي يسحب الورقة ذات العلامة ما رآه في المنام. ولكن هذه الفكرة لم تنجح. فقد ظهرت الأحلام إما سخيفة (فقد حلم بيلوفروزوف مثلًا أنه يطعم حصانه بسمك "البلطي" وأن له رأسًا خشبيًا)، وإما غير طبيعية ومختلقة بلا ريب... فقد روى لنا مايدانوف مثلًا قصة بمعني الكلمة، حافلة بالأقواس الجنائزية والملائكة والقيثارات والأزهار الناطقة... فضلًا عن الأنساب البعيدة... فلم تدعه زنيدا يواصل روايته، قائلة: "ما دمنا في سبيل الاختلاق، فليروِ كل منا شيئًا لم يحدث على الإطلاق". ووقع من نصيب بيلوفروزوف من جديد أن يكون هو البادئ.

ولكن الفارس الشاب أخذ يضرب أخماسًا في أسداس ثم صاح:

ـ إني لا أستطيع التفكير في شيء البتة.

فصاحت زنيدا قائلة:

- كلام فارغ، هب أنك متزوج، أو شيئًا من هذا القبيل: فحدثنا كيف كنت تعامل زوجتك.

هل كنت تغلق عليها الأبواب؟

- أجل كنت أفعل ذلك.

ـ وهل كنت تجالسها أنت نفسك؟

- بكل تأكيد.

ـ حسن. ولنفرض أنها سئمت عشرتك فخانتك؟

- كنت أقتلها...

ـ وإذا هربت؟

- كنت أجري وراءها وأقتلها.

ـ حسن. ولنفرض الآن أن زوجتك هي أنا، فماذا كنت تفعل؟

- كنت أقتل نفسي؟

فضحكت زنيدا وقالت:

- إن قصتك، على ما أرى، ليست بالمفرطة الطول.

وكانت الورقة الثانية من نصيب زنيدا. فنظرت إلى السقف واستغرقت في التفكير، ثم قالت في النهاية:

- أصغوا الآن. هذا هو ماتصورته. تخيلوا قصرًا جميلًا، وليلة صيف، وحفلة رقص رائعة. الملكة الشابة تستقبل ضيوفها. وفي كل مكان ذهب ورخام وبلور وحرير وأنوظار وماس وأزهار وبخور، كل ترف يمكن أن تشتهيه النفس.

فقاطعها لوشين قائلًا:

- إنك تحبين الترف، أليس كذلك؟ فردت عليه قائلة:

- إن الترف رشاقة، وأنا أحب الرشاقة.

فسألها:

- أكثر من الجمال؟

- إنك تفوقني دهاء. ولست أدري ماذا تعني. لا تقاطعني الآن... وهكذا فالحفل على أبهى ما يكون، هناك عدد عديد من الضيوف، كلهم شبان شجعان على حظ وافر من الوسامة، وكلهم مولعون بحب الملكة.

فسألها ماليفسكي:

- أو ليس هناك نساء بين الضيوف؟

- كلا... دعني أفكر... بلى هناك نساء.

ـ وكلهن عاطلات من الجمال؟

- كلهن فاتنات، ولكن الرجال جميعًا يعشقون الملكة.

وهي هيفاء القوام نحيفة القد... وتلبس إكليلًا من الذهب فوق شعرها الفاحم.

ونظرت إلى زنيدا، فلاحت لي عندئذ أطولنا جميعًا، وبدا جبينها الوضاء وحاجباها المستقيمان بدرجة من القوة والذكاء الباهر جعلتني أقول لنفسي: "إنك أنت الملكة".

واسترسلت زنيدا تقول:

- والجميع يلتفون بها. يتملقونها بأجمل العبارات.

فسألها لوشين:

- إذن فالتملق يستهويها؟

- أوه، إنك لا تطاق، بمقاطعاتك المتواصلة. ومن ذا الذي لا يستهويه التملق؟

فقال ماليفسكي:

- سؤال واحد أخير: هل للملكة بعل؟

فقال ماليفسكي:

- طبعًا! ما حاجتها إلى بعل؟

فصاح مايدانوف بالفرنسية، التي كان يتكلم بها بلهجة شنيعة: "اخرس"

فقالت زنيدا:

شكرًا... وهكذا تجلس الملكة مصغية إلى عبارات المديح وإلى الموسيقا، ولكنها لا تنظر إلى أحد من ضيوفها. وهناك ست نوافذ طويلة مفتوحة من السقف حتى الأرض، وخلفها السماء الحالكة المرصعة بالنجوم، وحديقة مظلمة بها أشجار باسقة. والملكة تنظر إلى الحديقة. وهناك بين الأشجار، نافورة تسطع وسط الظلام، وهي طويلة بالغة الطول حتى لتبدو شبحًا من الأشباح. وتسمع الملكة خلال رنين الأصوات والنغمات الموسيقية رشاش الماء الهادئ، وبينما تنظر الملكة خلال النافذة تفكر في نفسها: "نعم أيها السادة، إنكم جميعًا نبلاء حكماء أغنياء، وأنتم تتعلقون بي، وتتلقفون كل كلمة ألفظ بها، وكل منكم مستعد للموت عند قدمي، وأنتم جميعًا في قبضة يدي... ولكن هناك بجوار النبع، بجوار الماء المتدفق، يقف ذاك الذي أحبه، ذاك الذي يهيمن على حياتي، في انتظاري. وليس لديه ثياب فاخرة ولا حلي، ولا يعرفه أحد، ولكنه واقف ينتظرني، وهو يعلم أني سأخرج للقياه. وسوف أخرج فعلًا، فليس هناك قوة على الأرض تستطيع أن تمنعني إذا رغبت في الخروج للقائه، وللمكث معه، ولنسيان نفسي معه، هناك في ظلام الحديقة، حيث ترفرف الأشجار، وحيث ينبثق الرشاش من النبع...

وصمتت زنيدا. فسألها ماليفسكي ملغزًا:

- هل ذلك... محض خيال؟

فلم تتفضل زنيدا عليه ولو بنظرة. وقال لوشين فجأة:

- ترى ماذا كان يمكن أن نفعل، أيها السادة، لو أننا كنا بين هؤلاء الضيوف وعلمنا بأمر الرجل المحظوظ الواقف بجوار النبع؟

فقاطعته زنيدا قائلة:

- انتظروا، انتظروا، سأخبركم أنا نفسي بما كان يمكن أن يفعله كل منكم: فأنت يا بيلوفروزوف، كنت تطلبه للمبارزة. وأنت يا مايدانوف، كنت تسخر به في بيتين من الشعر... كلا، فأنت لا تقدر على نظم القصائد المقتضبة، كنت تكتب شعرًا مسهبًا وتنشره في جريدة "التلغراف". وأنت يا نيرماتسكي، كنت تقترض منه، كلا، بل كنت تقرضه بفائدة باهظة. أما أنت يادكتور _(وتوقفت برهة)_ فلست أدري ماذا كان يمكنك أن تفعل؟

فأجابها لوشين:

- بوصفي طبيب البلاط، كنت على الأرجح أنصح الملكة بعدم إقامة حفلة راقصة عندما لا يسمح لها مزاجها بالترحيب بالضيوف.

ـ لعلك كنت تكون على صواب. وماذا كنت تفعل ياكونت؟

فقال الكونت في ابتسامة خبيثة:

- أنا؟

- كنت تهدي إليه قطعة من الشيكولاتة المسمومة!

فجفل ماليفسكي، ولاح الخجل الشديد على وجهه، ولكنه لم يلبث أن انطلق ضاحكًا.

ومضت زنيدا قائلة:

- وأما أنت، يا فولدمار... ولكن أظن أننا شبعنا من هذه الحكاية. دعنا نلعب لعبة أخرى.

فقال ماليفسكي في كيد:

- إن السيد فولدمار. لأنه وصيف أمين، كان يمسك بذيل الملكة وهي تجري إلى الحديقة.

فاحتقن وجهي، ولكن زنيدا وضعت يدها على كتفي ونهضت قائلة في صوت يكاد يرتجف:

- إني لم أسمح لك قط بأن تكون وقحًا، أيها الكونت، ولذا أطلب منك أن تغادر منزلي.

وأشارت إلى الباب. فتمتم ماليفسكي قائلًا، وقد شحب وجهه:

- حقًّا يا أميرة.

فصاح بيلوفروزوف، وقد نهض هو أيضًا:

- إن الأميرة على حق!

فأردف ماليفسكي قائلًا:

- إني أقسم أني ما كنت أتوقع... ماكنت أظن أن في كلماتي أي شيء يمكن... إني لم أقصد البتة جرح شعور... إني ألتمس عفوك.

فسددت زنيدا إليه نظرة قارصة ثم ضحكت في برود. وقالت مؤمنة في استخفاف:

- امكث إن شئت. ما كان ينبغي لنا أنا والسيد فولدمار أن تفور فائرتنا. إنك مغرم باللذع، فلتلذع إذن!

فكرر ماليفسكي عبارته:

- إني ألتمس عفوك.

وتذكرت إيماءة زنيدا، فقلت لنفسي: إنه ما كان يمكن لملكة حقة أن تشير لمذنب إلى الباب بجلال أعظم.

ولم تستمر لعبة "الغرامات" مدة طويلة بعد هذا الحادث. فكل منا كان يشعر بشيء من الحرج، لا بسبب هذا المشهد الصغير، بل من جراء انفعال مقبض يصعب وصفه، لم يشر إليه أحد، ولكن كل منا كان يحس به، ويعرف أن جاره يشاطره إياه. وقد أنشد مايدانوف قصيدته، فأثنى عليها ماليفسكي في حماس مفرط. فهمس لوشين في أذني قائلًا:

- لكم هو حريص الآن على إظهار دماثة خلقه.

ولم تمضِ برهة حتى انصرفنا لبيوتنا. وكانت زنيدا قد استغرقت في التفكير فجأة، وبعثت أمها تقول: إنها تشكو الصداع. واشتكى نيرماتسكي من الروماتزم...

ولم أستطع النوم مدة طويلة، فقد كان لقصة زنيدا وقع شديد في نفسي. وأخذت أتساءل: "هل قصدت التلميح إليَّ بشيء معين. وإذا كان ذلك كذلك، فإلى ماذا وإلى من كانت تلمح؟ وإذا كان هناك جانب من الصدق في قصتها، فما كان يمكن أن تجسر..." ثم همست: "كلا، كلا، هذا مستحيل" وأنا أتقلب بلا انقطاع متوقد الوجنتين على وسادتي... ولكني تذكرت التعبير الذي كان يرتسم على وجه زنيدا وهي تروي قصتها... وتذكرت ما صرح به لوشين بغير قصد أثناء سيرنا في حدائق نسكوتشني والتغير المفاجئ الذي طرأ على معاملتها لي... وأضنيت نفسي بالتكهنات.

"من هو"؟ هاتان الكلمتان كانتا تتراءيان على الدوام أمام عيني، وكأنهما منقوشتان على الظلام بحروف من نار. وكان يبدو لي كأن سحابة محملة بالشؤم تجثم فوق رأسي، فظللت أتوقع أن تنفجر في أية لحظة. وكنت قد تعودت أشياء كثيرة في الشهور الأخيرة، فقد رأيت أمورًا غريبة عدة في منزل أسرة زاسكين: اختلال النظام، وأطراف الشموع المبعثرة والسكاكين والأشواك المتهتمة. وفونيفاتي الكئيب، والخادمات الرثات الثياب، وعجيب تصرفات الأميرة العجوز، فلم

يعد هناك شيء من هذه الأسرة الشاذة يمكن أن يدهشني... ولكني لم أستطع أن أتعود ما كنت آخذًا في التكهن به تكهنًا غامضًا من أمر زنيدا... ولقد دعتها أمي مرة "بالمغامرة"... هي، معبودتي، إلهتي_مغامرة! وقد لذعتني هذة الكلمة، فحاولت الهروب منها بدفن وجهي في وسادتي. كنت أتميز غيظًا من جراء هذه الكلمة... ومع ذلك، أي شيء كنت لا أضحي به كي أصبح ذاك الإنسان السعيد الواقف بجوار النبع!

كان دمي يغلي في شراييني. وفكرت قائلًا لنفسي: "الحديقة.. النبع... ولنفرض أني خرجت إلى الحديقة!" فارتديت ملابسي في غمضة عين وتسللت إلى الخارج. وكانت ليلة مظلمة، والأشجار تهمس في صوت لا يكاد يسمع. وأحسست ببرودة ساكنة تهبط من علٍ، وبرائحة حبة البركة تنبعث من حديقة الخضر. ومررت بجميع طرقات الحديقة، وكان صوت خطواتي الخفيفة يفزعني ويسعدني في آن واحد. ثم وقفت أنصت إلى نبضات قلبي، وكانت نبضات سريعة قوية. وأخيرًا بلغت السور فاستندت إلى ركائزه الرقيقة. وفجأة شعرت _أم كان ذلك مجرد خيال!_ بجسم أنثوي يمر بي... فحملقت في الظلام، كاتمًا أنفاسي... ما هذا؟ هل هو صوت خطواتي، أو هو مجرد نبضات قلبي؟ وهمست في صوت خافت: "من هناك؟... ثانية! أهذه ضحكة مكتومة... أو حفيف الأغصان... أو شخص يتنهد بجوار أذني؟ لقد تولاني الرعب، فهمست من جديد: "من هناك"؟ في صوت أشد انخفاضًا.

وهبت نسمة خفيفة برهة من الزمن. وبرق شيء في السماء: شهاب منقض. وأردت أن أسأل: "هل أنت زنيدا؟" ولكن الكلمات جفت في حلقي. وإذا بسكون عميق، كما يحدث كثيرًا في أواسط الليل، يسود فجأة... حتى الجنادب توقفت عن الزقزقة وسط الشجيرات، وترامى إلى أذني صوت نافذة تغلق. ومكثت برهة في مكاني، ثم عدت إلى غرفتي، إلى فراشي البارد... وكنت أشعر باهتياج غريب، كما لو كنت قد وفيت بموعد ولكن الحبيب أخلف وعده، فوجدت نفسي وحيدًا، على حين غيري بحبها يسعد.

وفي اليوم التالي لم أستطع رؤية زنيدا إلا في لمحة خاطفة وهي تمر بي في عربة مع أمها. ورأيت لوشين، ولكنه اكتفى بتحيتي تحية مقتضبة. ورأيت ماليفسكي، وقد تظرف الكونت الشاب معي وحدثني بلهجة ودية. وكان هو الشخص الوحيد، بين جميع زوار الجناح، الذي استطاع أن يتسلل إلى منزلنا ويفوز بعطف أمي ورضاها. وأما أبي فلم يكن يستسيغه، وكان يعامله في أدب أقرب إلى الوقاحة.

قال ماليفسكي:

يا سيدي الوصيف[10]، يسعدني أن أراك! ماذا تفعل ملكتك الحسناء؟...

فتولاني عندئذ شعور بالمقت الشديد لطلعته على الرغم من وسامتها، وأحسست في نظرته من المزاح البذيء، ما جعلني أمسك عن إجابته.

[10] Ah, morsieur le page!

فمضي يقول:

- ماذا؟ ألا زلت غاضبًا مني؟ لا ينبغي لك ذلك، فلست أنا من دعوتك بالوصيف، كما تعلم... والملكات هن في العادة اللواتي يكون لهن وصفاء. ولكن اسمح لي أن ألاحظ أنك تهمل واجباتك بعض الشيء.

ـ واجباتي؟

- أجل، فالوصيف يجب ألا يترك جانب سيدته أبدًا، عليه أن يعرف ما تفعله طيلة الوقت...

ثم أردف قائلًا بصوت منخفض:

- وعليه أن يراقب جميع حركاتها، نهارًا، وليلًا.

ـ ماذا تعني بذلك؟

- ماذا أعني؟ كنت أحسب أن ما أعنيه واضح جلي. ففي النهار نور، والعيون تبصر ما يجري. أما في الليل، تسهر وترقب، ثم ترقب، ولا تألو في ذلك جهدًا. تذكر الحديقة والليل والنبع، فهنالك يجب أن ترصد. ولسوف تشكر لي ذلك يومًا من الأيام.

وضحك ماليفسكي وأدار لي ظهره. وأغلب الظن أنه لم يكن يعلق أهمية كبيرة على كلماته، فقد كان له صيت بأنه مهذار من الطراز الأول، وكان مشهورًا بقدرته على خداع الناس في الحفلات الراقصة

المقنعة، مستعينًا في ذلك بما يتسم به من زيف أصبح لديه بمثابة طبيعة ثانية... لقد كان لا يقصد إغاظتي، ولكن كل كلمة من كلماته كانت أشبه بقطرة من السم سرت في شرايينى. فقد فارت فائرتي، وقلت لنفسي: "ها! إذن فالأمر كذلك. حسنًا! وهكذا فلأمر ما كنت قد جذبت إلى الحديقة، وصحت وأنا أضرب على صدري:

- ولكني لن أسكت على ذلك!

ولو أنه لم يكن في إمكاني أن أقول: ما ذلك الذي لن أسكت عنه؟

ومضيت أقول لنفسي:

- وسواء أوجدت ماليفسكي نفسه في الحديقة (فلربما كان سره هو الذي أفشاه، وهو من الصفاقة بحيث لا يستغرب منه ذلك) أم وجدت شخصًا آخر (وكان سور حديقتنا منخفضًا يسهل التسلق فوقه) ومهما يكن الشخص، فينبغي له أن يحتاط لنفسه، لأني أنا الذي سأتصدى له، لسوف أبرهن للعالم، ولتلك الفتاة الزائفة (أجل، هكذا دعوتها) أني أعرف كيف أنتقم لنفسي!

وعدت إلى غرفتي، وأخرجت من مكتبي مطواة إنجليزية كنت قد اشتريتها من بضعة أيام مضت. وتحسست سلاحها المشحوذ، ثم دسستها في جيبي، مقطب الجبين، تبدو عليَّ أمارات العزم الهادئ الراسخ، كما لو كنت من المحنكين في هذا النوع من الأمور. وكان

قلبي يرجف في غضب، ثم بدا كأنه تحول إلى حجر. وأمضيت النهار طواله، مقطب الجبين مطبق الشفتين، أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وأنا أقبض على مطواتي، التي سخنت في جيبي، وأعد نفسي لحدث رهيب. ولقد كانت هذه الأحاسيس من الجدة والطرافة بحيث استهوتني، بل لقد تهت بها مزهوًّا حتى كدت لا أفكر البتة في زنيدا نفسها. وشغل خيالي بصورة "أليكو" والفتاة النورية_"إلي أين، أيها الفتي؟ امكث هناك..." ثم: "إنك مخضب بالدماء! ماذا فعلت؟... "لاشيء!" ولم يكن أبي في البيت، ولكن أمي، التي كانت عندئذ في حالة دائمة من الهيجان المكبوت، لاحظت ما يبدو عليَّ من مظاهر الشؤم فسألتني ساعة العشاء:

- إنك تبدو كقط يرقب فأرًا، ماذا جرى؟

فكان كل جوابي أني تلطفت عليها بابتسامة، وأنا أقول لنفسي: "آه، لو أنهم علموا!" ودقت الساعة الحادية عشرة، فصعدت إلى غرفتي، ولكني لم أخلع ملابسي. فقد كنت أنتظر دقة منتصف الليل. وأخيرًا دقت الساعة، فهمست بين أسناني المطبقة: "الآن!" وانطلقت إلى الحديقة، بعد أن أقفلت سترتي على سبيل الاحتياط، وبعد أن شمرت _لسبب ما_ عن ساعدي.

وكنت قد أخذت مقدمًا الموقع الذي نويت أن أتخذه مكمني. ففي أقصى الحديقة، حيث ينتهي السور الفاصل بين أرضنا وأرض

أسرة زاسكين إلى الجدار الذي يحيط بكلتيهما، كانت شجرة شوح منعزلة، وباتخاذ مرصدي تحت أغصانها المنخفضة الكثيفة كان يمكنني أن أرى كل ما حولي، بقدر مايسمح بذلك ظلام الليل. وكان هناك طريق بدا لي أمره دائمًا لغزًا مبهمًا، فقد كان يتلوى كالحية تحت السور، وترتسم عليه في هذا الموضع عينه آثار أقدام أولئك الذين كانوا يتسلقون فوق الركائز. وبعد ذلك كان يمتد الطريق إلى عريش مستدير يتكون من فروع أشجار السنط. فلما بلغت شجرة الشوح، استندت إلى جذعها، وأخذت أرقب...

وكانت ليلة ساكنة كتلك التي سبقتها. غير أن السحاب كان أقل، فظهرت أطراف الشجيرات والأزهار العالية بصورة أوضح. وكانت الدقائق الأولى التي أمضيتها في الانتظار مملة، بل باعثة على الضيق والضجر... كنت مستعدًّا لأن أفعل أي شيء! ولكن فكري لم يكن قد استقر بعد على الأسلوب الذي ينبغي أن أسلكه. فهل أقصف كالرعد: "إلى أين تمضي؟ قف! اعترف أو هلكت!" أو أطعن فقط في الظلام؟ وكان صوت، كل حفيف، وكل رفيف، يبدو لي أمرًا غير مألوف، أمرًا ذا مغزى... وتهيأت للانقضاض، منحنيًا إلى الأمام... ولكن مضت نصف ساعة، ثم ساعة، فهدأت فائرتي تدريجيًّا، وسكنت نفسي. وبدأت أدرك أن ما أفعله عبث عقيم، وأني تصرفت تصرف الأبله، وأن كل ماقاله ماليفسكي لم يكن إلا ليهزأ بي. فغادرت كميني وجلت جولة في الحديقة. وكأن القدر قد أراد النكاية بي، فلم يكن

هناك صوت يسمع. كل شيء ساكن، بل حتى كلبنا كان نائمًا، متكورًا عند بوابة الحديقة. وتسلقت إلى قمة الدفيئة المتهدمة، وأخذت أتأمل الحقول المترامية، ثم تذكرت التقائي بزنيدا، فشردت أفكاري.

وجفلت فجأة... فقد خيل إليَّ أني سمعت صرير باب يفتح، يتبعه خفق أغصان... وما هي إلا وثبتان حتى عدت إلى الأرض، وجمدت في مكاني. وسمعت بوضوح دبيب خطوات خفيفة سريعة متسللة... وكانت تقترب مني. فالتمع خاطر في ذهني: "ها هو ذا، أخيرًا!" وانتزعت مطواتي مرتجفًا، ثم فتحتها في رجفة أشد. وقد برق شرر أحمر أمام عيني، وانتصب شعري خوفًا وغلا... واقتربت الخطوات من الموضع الذي كنت أقف فيه، فتربصت مرهفًا بصري... وظهر شكل رجل... ويحي! ذاك هو أبي!

وقد عرفته في الحال، بالرغم من أنه كان ملتفعًا بمعطف أسود وقبعته مشدودة إلى أسفل حتى حاجبيه. ومر بي على أطراف قدميه. منكمشًا على الأرض حتى بدوت جزءًا منها. وفي غمضة عين تحول "عطيل" الغيور المتعطش للدماء إلى صبي صغير... ولقد أرعبني ظهور أبي غير المتوقع حتى أني لم ألاحظ في البداية من أين أتى، أو إلى أين أتجه واختفى. فلما عاد السكون من جديد. واسترخت أطرافي، أخذت أتساءل عما كان يفعل في الحديقة أثناء الليل. وكنت في ساعة ذعري، قد "أفلت" المطواة فوقعت على الأرض، ولكني

لشدة خجلي لم أبحث عنها. ولقد ثبت إلى رشدي على الفور. غير أنني، أثناء عودتي إلى البيت، جلست على دكتي تحت شجرة البيلسان، ورفعت بصري إلى نافذة زنيدا. وكان زجاج النافذة يبدو أزرق قاتمًا في حلكة الليل، ولكن لونه تغير فجأة، ورأيت بوضوح ستارة باهتة اللون تسدل في حذر ورفق حتى تلمس حافة النافذة...

فقلت لنفسي في صوت مرتفع، عن غير قصد، لدى عودتي إلى غرفتي:

- ما معني كل ذلك؟ أحلم هو، أم صدفة، أم؟..." ولكن الشكوك التي أخذت تساور نفسي كانت من الجدة والغرابة بحيث لم أجسر على التسليم بها.

واستيقظت في الصباح مصدع الرأس، وقد تبددت الأحاسيس الهائجة المائجة التي كانت تستحوذ عليَّ في اليوم السابق، دون أن يحل مكانها سوى نوع من الذهول الأليم وشعور بالكآبة لم يعترني من قبل، وكأن شيئًا في باطن نفسي كان يشرف على الموت.

وقد قال لي لوشين عندما التقينا صدفة في ذلك اليوم:

- إنك تبدو كأرنب نزع نصف مخه.

وسارقت النظر إلى أبي وأمي ساعة الإفطار: أما هو، فكان كعادته هادئًا. وأما هي فكانت على عادتها مليئة بالغيظ المكبوت.

وتوقعت بعض التوقع أن يقول لي أبي كلمة لطيفة، كما كان يفعل أحيانًا... ولكنه في هذه المرة لم يتلطف عليَّ حتى بتربيتته الباردة اليومية. وأخذت أتساءل: "هل ينبغي أن أخبر زنيدا بكل شيء؟... فلم يعد هناك ما أكترث له، بعد أن انتهى كل شيء فيما بيننا." وذهبت إليها، ولكني لم أعجز فقط عن إخبارها بأي شيء، بل لم تتح لي حتى فرصة التحدث إليها على حدة. فقد كان ابن الأميرة العجوز، وهو صبي في الثانية عشرة من عمره، قد وصل من بطرسبورج لتمضية العطلة. فناطت بي زنيدا على الفور أمر شقيقها، قائلة: "ها هو ذا رفيق لك ياعزيزي فولوديا[11]. (ولم تكن قد دعتني بهذا الاسم من قبل.) وهو أيضًا يدعي فولوديا. آمل أنك ستحبه، وهو أميل إلى الخجل، ولكن له قلب طيب. أرِهِ حدائق نسكوتشني، واخرج معه للتنزه، وبعبارة موجزة، توله بعنايتك. أفلا تفعل ذلك؟ فأنت نفسك رجل رقيق القلب!" ووضعت يديها في حنان على كتفي، فقفز إليها قلبي من جديد. وقد ردني وصول هذا الصبي إلى عهد صباي. نظرت إليه في صمت، ونظر إليَّ هو أيضًا في صمت.

فانطلقت زنيدا تضحك ودفعتنا أحدنا إلى الآخر وهي تقول: "هلما أيها الطفلان، تعانقا!" فأطعناها.

وسألت الصبي:

[11] تصغير اسم فلاديمير

- هل تحب أن ترى الحديقة؟

فأجابني بصوت أجش، كما يفعل الصبيان تمامًا:

- نعم ياسيدي، لو سمحت.

فضحكت زنيدا ثانية... ولاحظت أن محياها لم يكن قط من الجمال واللطف كما كان في ذلك اليوم. وانطلقنا أنا والصبي. وكان في حديقتنا أرجوحة قديمة، فساعدته على الصعود إلى المقعد الضيق وأخذت في ترجيحه. وجلس هو بلا حراك، في بذلته الجديدة من القماش السميك، المزدانة بشرائط عريضة من الجدئل الذهبية، ممسكًا بالحبال بكل ما أوتي من قوة.

فسألته:

- لماذا لا تفك ياقتك؟

فقال وهو يجلو حنجرته:

- أوه، لقد تعودناها.

وكان يشبه أخته شبهًا كبيرًا. وكانت عيناه على الأخص تذكرني بعينيها. فلذ لي أن أتولى أمره، ولكن الأسى الدفين ما فتئ ينهش قلبي. وقلت لنفسي: "إني اليوم مجرد طفل، على حين كنت أمس فقط...." وتذكرت المكان الذي وقعت فيه مطواتي، فذهبت أبحث عنها. وقد وجدتها، فرجاني الصبي أن أقرضه إياها، فقطع ساقًا غليظة

من نبات الشوكران، وصنع لنفسه صفارة وأخذ ينفخ فيها. وصفر "عطيل" قليلًا، وهو أيضًا.

غير أن "عطيل" المسكين قد بكى في المساء بكاء مريرًا بين ذراعي زنيدا عندما لقيته في زاوية منعزلة من زوايا الحديقة وسألته: ما الذي جرى له ليبدو حزينًا كل ذلك الحزن؟ ولقد تدفقت دموعي تدفقًا شديدًا حتى لقد تولاها الرعب والجزع. فأخذت تسألني وتكرر السؤال: "ماذا جرى يافولدمار؟ ماذا جرى؟" فلما لم أجبها ورأتني لا أنقطع عن البكاء، حاولت أن تقبل خدي المبتل. ولكني حولت عنها وجهي وأنا أهمس بين زفراتي: "إني أعلم كل شيء. لماذا غررت بي؟ ما الذي أحوجك لحبي؟"

فقالت زنيدا:

- أجل، إني أستحق اللوم يافولوديا. إني أعلم ذلك (وضمت يديها). إن في نفسي الكثير من الشر والظلمة والإثم... ولكني لا أتلاعب بعواطفك الآن، فأنا مغرمة بك حقًّا، ولا يمكنك أن تتصور لماذا... ولكن... ما الذي نعمله؟"

فماذا كان يمكن أن أقول؟ لقد كانت واقفة أمامي، تنظر إلي، وكنت أهيم بها كلما نظرت إلي... وما هي إلا دقائق حتى كنت أجري في سباق مع الصبي وزنيدا. وكنت أضحك عندئذ، لا أبكي، ولكن الضحك كان يقذف بالدموع من أجفاني المتورمة. وقد وضعت

حول عنقي شريطًا لها بدلًا من الرباط، وكنت أصيح فرحًا وطربًا كلما تمكنت من اللحاق بها وطوقت حول خصرها بذراعي... كان في وسعها أن تفعل بي ما تشاء.

ولو طلب مني أن أسرد بالتفصيل كل ما اعتلج في نفسي من المشاعر أثناء الأسبوع الذي تلا مغامراتي الليلية المخفقة، ما عرفت ماذا أقول. فلقد كانت فترة غريبة محمومة، اختلطت فيها المشاعر والأفكار والشكوك والآمال والمسرات والآلام على شتى أنواعها في شبه دوامة جنونية. لقد كنت أخشى النظر إلى قلبي، إن كان يمكن اعتبار صبي في السادسة عشرة من عمره قادرًا على فحص قلبه، وكنت أخشى التفكير تفكيرًا جديًّا في شيء ما، فكنت أعبث طيلة النهار ما وسعني العبث. ولكني كنت أنام في الليل مستغرقًا... فهنا كانت خفتي الصبيانية تنقذني. كنت لا أريد أن أعلم هل كنت أحظى بحبها، وكنت لا أريد أن أقر بأنها لا تحبني. وكنت أتجنب أبي، أما زنيدا فلم يكن في استطاعتي أن أتجنبها... كان وجودها بجواري يلتهمني التهام اللهب... وماذا كان يعنيني من أية نار، هي تلك التي كانت تحرقني وتذيبني، طالما كنت أستمتع بالاحتراق والذوبان؟ كنت ألهو بنفسي، منساقًا لكل نزوة، معرضًا عن الذكريات، متغافلًا عما يخبئه لي القدر... ولكن تلك النوبة من الحمى لم يكن من الممكن أن تدوم. ولقد قضت عليها صاعقة بغتة، فتحول مجرى حياتي تحولًا شديدًا.

ففي يوم من الأيام، لدى عودتي إلي البيت للغداء، بعد سير طويل، فوجئت بمن يخبرني بأني سأتناول الغداء وحدي، وأن أبي قد بارح المنزل، وأن أمي متوعكة وقد أوصدت على نفسها غرفة نومها ولا تريد الغداء. ولم يكن من العسير عليَّ أن أدرك من وجوه الخدم أن أمرًا غير مألوف قد حدث... ولم أجسر على توجيه الأسئلة إليهم، ولكن كان من بينهم صديق، يدعى فيليب، وهو شاب مشغوف بالشعر، وعازف بارع على القيثار، فاستجوبته. فعلمت أنه قد وقعت مشادة مروعة بين أبي وأمي (وقد أمكن سماع كل كلمة منها في غرفة الخدم. وكان معظم الحديث بالفرنسية، ولكن إحدى الخادمات، وتدعى ماشا، كانت قد اشتغلت مدة خمس سنوات في منزل خياطة من باريس، ففهمت كل ما دار بينهما)، وأن أمي قد اتهمت أبي بخيانتها، وان له علاقة متصلة بالجارة الشابة، فدفع أبي عن نفسه التهمة في أول الأمر، ولكنه احتد بعد ذلك وقال شيئًا مهينًا عن "امرأة في سنها"، فأبكاها، وقد ذكرت أمي أيضًا أمر "كمبيالة" زعمت أن أبي قد أعطى الأميرة العجوز إياها، ناعتة لها هي وابنتها بأغلظ الصفات، وعندئذ اشتط أبي وتلفظ بكلماته القاسية.

واختتم فيليب روايته قائلًا:

- لقد كان مبعث كل ذلك خطابًا من مجهول، ولا يدري أحد من كتب هذا الخطاب. وهكذا انفضح الأمر، وما كان يمكن أن ينفضح لولا هذا الخطاب.

فتحاملت على نفسي وسألته، وقد تجمد دمي في أطرافي، وارتعدت فرائصي:

- أتريد أن تقول: إنه كان هناك أمر ما؟

فغمز فيليب بعينه غمزة ذات مغزى، وقال:

- كان هناك. فليس في الإمكان التستر على هذا النوع من الأمور. ولقد كان أبوك شديد الحذر هذه المرة، ولكن لا يخلو الأمر من عربة يراد استئجارها، أو شيء ما من هذا القبيل... فلا يمكن الاستغناء عن الخدم.

فصرفت فيليب وارتميت على فراشي. ولكني لم أنفجر باكيًا أو أنغمر في لجة اليأس، ولم أتساءل كيف ومتى وقع كل ذلك، ولم أسأل نفسي كيف لم أكتشف أنا ذلك من زمن طويل، بل لم أتمتم بشيء ضد أبي... فذاك الذي أخبرت به كان يتعدى طاقتي. وقد حطمتني المفاجأة... وشعرت بأن كل شيء قد انتهى. وقد اقتلعت أزهاري جميعها من جذورها وألقيت حولي مبعثرة تطؤها الأقدام.

وفي اليوم التالي أعلنت أمي عزمها على العودة إلى المدينة. فتوجه أبي إلى غرفتها وتحدث معها حديثًا طويلًا. ولم يسمع ما قاله أحد، ولكن أمي كفت عن البكاء، وهدأت نفسها، وأمرت بإحضار طعام الإفطار، دون أن تغادر مع ذلك غرفتها أو ترجع في قرارها. وأتذكر أني طفقت أتجول طيلة النهار، ولكني لم أذهب إلى الحديقة، ولم ألقِ بنظرة واحدة صوب الجناح. وفي ذلك المساء رأيت بعيني

مشهدًا لم أكن أتوقعه قط، حيث شاهدت أبي يأخذ بذراع الكونت ماليفسكي ويخرج به من قاعة الاستقبال إلى البهو، ثم يقول له في برود، أمام أحد الخدم: "من بضعة أيام أشير لكم يا صاحب السعادة إلى الباب في منزل بعينه، والآن _ودون الدخول في تفصيلات_ أتشرف بإبلاغكم أنكم لو حاولتم المجيء هنا ثانية، فسأقذف بكم من النافذة. لست أحب خطك!" فتمسكن الكونت، وأطبق أسنانه وضغط عليها بشدة، وهز كتفيه ثم انسل ماضيًا...

وبدأت الاستعدادات للانتقال إلى المدينة، إلى منزلنا في شارع أربات. وأغلب الظن أن أبي نفسه لم تعد له رغبة في البقاء في الريف، ولكنه كان قد أفلح فيما يلوح في إقناع أمي بتجنب الفضائح، فقد جرى كل شيء في هدوء، دون تعجل، بل لقد بعثت أمي بتحياتها إلى الأميرة، معتذرة بتوعكها عن توديعها. أما أنا فكنت أهيم على وجهي كالمذهول، ولا أرغب إلا في أن ينتهي كل ذلك بأسرع مايمكن. ولكن كان يساورني خاطر لا أستطيع التخلص منه، وهو كيف أمكنها، وهي فتاة صغيرة، وأميرة على كل حال، أن تسلك المسلك الذي سلكته، مع علمها بأن أبي ليس بالرجل العزب، ومع إدراكها التام أنه كان من اليسير عليها أن تتزوج بيلوفروزوف مثلًا! ماذا كانت تتوقع أن ينجم عن ذلك؟ ألم تخشَ تحطيم مستقبلها؟ غير أني قلت لنفسي. "ذاك هو الحب، ذاك هو العشق، ذاك هو الوله!" وتذكرت ماقاله لي لوشين: "يلوح أن هناك قومًا يستلذون التضحية بأنفسهم".

وفي مرة أثناء هذه الفترة لمحت شيئًا شاحبًا في إحدى نوافذ الجناح، فتساءلت: "أيمكن أن يكون ذلك وجه زنيدا؟"...

وقد كان بالفعل وجهها. فلم أعد أستطيع الصبر، ولم أحتمل فراقها بدون كلمة وداع. فتربصت بفرحة وشققت طريقي إلى الجناح.

فاستقبلتني الأميرة العجوز في قاعة الاستقبال على عادتها من القذارة والاستهتار.

وسألتني وهي تملأ أنفها بالسعوط:

- ما الذي حدث يا سيدي حتي يبادر أهلك إلى الرحيل؟"

فنظرت إليها، وإذا بحمل ثقيل يزاح عن كتفي. فقد كانت لفظة "كمبيالة" التي جاءت على لسان فيليب، تعذبني. ولكن الأميرة العجوز لم تكن ترتاب في معرفتي بذلك الأمر، أو هذا على الأقل هو ما بدا لي عندئذ. وظهرت زنيدا من الغرفة المجاورة، شاحبة، ترتدي ثوبًا أسود، وقد انحل شعرها، فأمسكت بيدي في سكون وقادتني إلى غرفتها. ثم قالت:

- لقد سمعت صوتك، فأتيت على الفور. أفكان من اليسير عليك أن تهجرنا يا قاسي القلب؟

فأجبتها قائلًا:

- لقد جئت لوداعك يا أميرة، إلى الأبد على الأرجح. هل سمعت أننا سننتقل عائدين إلى المدينة؟

فأخذت تتفرس في، ثم قالت:

- نعم سمعت، شكرًا على مجيئك. كنت قد أخذت أظن أني لن أراك أبدًا. تـذكرني في عطـف، إن استطعت. إني أعلم أني قد عذبتك أحيانًا، ولكني لست كما تظن بي.

ثم استدارت واستندت إلى حافة النافذة، ومضت تقول:

- لست حقًّا كما تظن. فأنا أعلم أنك تسيء الظن بي.

ـ أنا؟

- نعم أنت... أنت...

فقلت ثانية، مبتسمًا، وقد اهتز قلبي من جديد بفعل سحرها الذي لا يوصف ولا يقاوم:

- أنا؟ أنا؟ صدقيني يا زنيدا ألكساندروفنا، مهما يكن ما فعلت، وكيفما كان تعذيبك لي، فسوف أحبك وأعبدك ما حييت.

فاستدارت في لمحة بصر، مفتوحة الذراعين، ثم ألقت بهما حول عنقي، وأخذت تقبلني في حرارة وقوة، ولست أدري من كان المقصود بقبلة الوداع الطويلة هذه، ولكني انتهلت رحيقها العذب في تلهف، عالمًا بأنها لن تتكرر، وطفقت أقول وأقول:

- وداعاً، وداعاً! وانتزعت نفسها مني وخرجت من الغرفة، فخرجت أنا أيضًا. وليس في وسعي أن أصف شتى المشاعر التي

كانت تختلج في نفسي ساعة انصرافي. ولست أحب أن أمتحن بكل هذه التجارب مرة أخرى، ومع ذلك فما كنت لأعد نفسي رجلًا سعيدًا لو أنني لم أكتوِ بها.

وانتقلنا عائدين إلى المدينة. وقد مضت فترة طويلة قبل أن أتمكن من الانتفاض من الماضي، وأبدأ في العمل من جديد. ولم يبرأ جرحي إلا رويدًا رويدًا، ولكن لم أضمر ضغينة لأبي. بل على العكس. لقد كبر في عيني، وليفسر علماء النفس هذا التناقض الغريب على قدر ما يستطيعون. وكنت أسير يومًا في أحد الشوارع الكبيرة وإذا بالحظ يسعدني بلقاء لوشين.

وكنت أحبه لإخلاصه وصراحته، كما كان عزيزًا علي بفضل ما يثيره في نفسي من ذكريات. فاندفعت إليه اندفاعًا في سرور عظيم.

فقال لي، وهو يقطب جبينه:

- ها! أهذا أنت يافتى؟ دعني ألقي نظرة عليك. لا زلت شاحب اللون بعض الشيء، ولكن سيماء الكآبة قد انجلت عن عينيك. إنك تبدو إنسانًا، لا كليبًا مدللًا، هذا أمر حسن. وكيف حالك؟ أتَجِدُّ في الدرس؟

فتنهدت، إذ لم أكن أريد الكذب، ولكنه كان يخجلني أن أكتم الحقيقة.

فمضي لوشين يقول:

- هون على نفسك، ولا تيئس، فالشيء الجوهري هو أن تعيش عيشة طبيعية، ولا تدع الأهواء تجرفك في تيارها. فأينما جرفتك الأمواج، كان ذلك وبالًا عليك، ولكن ما دام لدى الإنسان ولو حجر يستند إليه، فهو يستطيع على الأقل أن يقف على قدميه... أما أنا فأمضي وقتي في السعال، وبيلوفروزوف... هل سمعت شيئًا من أخباره؟

ـ لماذا، ما الذي جرى له؟

- لقد اختفى تمامًا، ويقال إنه سافر إلى القوقاز. فليكن لك منه عبرة أيها الفتى، وكل ذلك لأن الناس لايعرفون متى تأزف ساعة الرحيل ساعة تمزيق الشباك. ويبدو أنك قد تخلصت منها دون أن يصيبك سوء. فحاذر الوقوع فيها مرة أخرى! إلى اللقاء!

فقلت لنفسي: "لن أقع مرة أخرى أبدًا، فلن أراها أبدًا." ولكن كان من المقدر لي أن أرى زنيدا مرة أخرى.

فقد كان من عادة أبي أن يخرج كل يوم لركوب الخيل. وكان له جواد إنجليزي كميت، ذو رقبة نحيفة ممدودة وسيقان طويلة، يدعى "إلكتريك"، وقد كان حيوانًا صعب المراس لايقدر غير أبي على كبح جماحه. وفي يوم من الأيام دخل أبي في غرفتي صافي المزاج، وهو أمر كان يندر منه في الفترة الأخيرة. وكان يتأهب للخروج كعادته، وقد وضع مهمازيه على قدميه. فرجوته أن يأخذني معه.

فأجابني قائلًا:

- الأفضل أن نلعب "النطة" بدلًا من ذلك، فلن تستطيع أن تجاريني بفرسك الألماني الصغير.

ـ بلى، سأستطيع، فسوف أضع مهمازي.

ـ تعالَ إذن!

فخرجنا معًا. وكان لي مهر أشعث أدهم، متين الساقين خفيف الحركة. ومن الصحيح أنه كان لا بد لي من الركض لمجاراة إلكتريك في سيره، ولكنني لم أتخلف عنه... ولم أرَ قط فارسًا مثل أبي، فقد كان في قعدته أشد مايكون خفة ورشاقة، وكان الحصان يبدو كأنه يشعر بذلك، وأنه فخور معتز براكبه. وقد سرنا مخترقين الشوارع الكبيرة، ثم قضينا بعض الوقت في ساحة دفيتشي بولي، وقفزنا فوق العديد من الحواجز (وكنت أهاب القفز في البداية، ولكن أبي كان يزدري الهيابين، فتجاسرت وقفزت)، وعبرنا نهر موسكو مرتين، وكنت أحسب أننا في طريقنا إلى البيت، وبخاصة بعد أن لاحظ أبي أن حصاني يبدو عليه التعب، فإذا به يبتعد عني فجأة، متجهًا إلى مخاضة "كريمسكي"، راكضًا بجواده بحذاء النهر. فانطلقت خلفه. فلما بلغنا كومة عالية من الكتل الخشبية، وثب في خفة عن حصانه وأمرني بالنزول، ثم ألقى بعنان إلكتريك بين يدي، طالبًا مني انتظاره بجانب الكتل الخشبية. ثم عرج على طريق جانبي ضيق واختفى عن عيني. فأخذت أروح وأجيء على شاطئ النهر ممسكًا بالحصانين،

ومعنفًا إليكتريك الذي لم ينقطع عن التطويح برأسه، وهو ينتفض من أدناه إلى أقصاه، صاهلًا ناخرًا. وعندم كنت أقف، كان ينبش الأرض بحوافره ويصهل ويعض رقبة مهري، أي أنه كان يسلك مسلك أمثاله من الخيل الأصيلة المدللة. كل ذلك ولم يعد أبي. وتصاعدت من النهر رطوبة مزعجة، وتساقط رذاذ بلا صوت، مبرقش ببقع قاتمة، تلك الكتل الخشبية الرمادية المملة التي كنت لا أنقطع عن التجول حولها حتى سئمتها أشد السأم. شعرت بالضيق والغم، وما زال أبي لم يعد. واقترب مني شرطي، يلوح أنه فنلندي، ويشبه في لونه تلك الكتل الرمادية، وعلى رأسه خوذة كالقدر، حاملًا رمحًا (وماذا يا ترى كان يفعل شرطي على شاطئ نهر موسكو؟) وأدار إليَّ وجهًا أشبه بوجه شمطاء متغضن، وسألني:

- ماذا تفعل هنا يا سيدي بهذين الفرسين؟ دعني أمسك بهما بدلًا منك.

فلم أجبه، فسألني شيئًا من التبغ. وللتخلص منه (ولأن صبري كان قد نفد) خطوت بضع خطوات في الاتجاه الذي سار فيه أبي، ثم مشيت في الشارع الجانبي، ودرت عند ركن الشارع... وعندئذ جمدت في مكاني... فعلى بعد نحو أربعين خطوة، كان أبي يقف، مديرًا لي ظهره، عند نافذة مفتوحة في منزل خشبي صغير. وكان متكئًا على حافة النافذة، على حين جلست داخلها امرأة في ثوب أسود،

قد أخفت الستارة نصفها، تتحدث إلى أبي، وكانت هذه المرأة هي زنيدا...

فصعقت، إذ لم يكن ذلك شيئًا أتوقعه على الإطلاق. وكان أول خاطر جال بذهني هو أن أعود إلى حيث كنت، قائلًا لنفسي: "إذا التفت أبي إلى الوراء، فقد هلكت." ولكن شعورًا غريبًا، أقوى من التطلع، وأقوى من الغيرة، وأقوى من الخوف، سمرني في مكاني. فوقفت أحملق وأصيخ السمع عسى أن التقط شيئًا من كلماتهما. وكان يبدو أن أبي يصر على شيء ما لا تريد زنيدا الموافقة عليه. ولا أزال أتخيل وجهها، مكتئبًا رصينًا جميلًا، متسمًا بمزيج لا يوصف من الولاء والحزن والحب ونوع من اليأس، فلست أجد كلمة أخرى للتعبير عن المعنى الذي أقصده. وكانت لا تنطق بغير كلمات مقتضبة، دون أن ترفع عينيها، مبتسمة فقط في تواضع وعناد. ولو لم أر منها غير هذه الابتسامة لعلمت أنها هي زنيدا. وهز أبي كتفيه وعدل قبعته، وتلك أمارة يستدل بها على فراغ صبره... ثم سمعته يقول: ينبغي لك أن تنفصلي عن هذه...[12] فانتصبت زنيدا. وبسطت ذراعيها... وهنا شهدت عيناي مشهدًا مذهلًا، فقد رفع أبي السوط الذي يستعمله لدى ركوب الخيل، والذي كان ينفض به التراب عن أطراف معطفه، وهوى به في قسوة على ساعدها العاري. فكدت أصرخ، ولكن زنيدا جفلت

[12] Vuos devez vous séparer de sette…

فقط، ونظرت إلى أبي في صمت، ثم رفعت ذراعها ببطء إلى شفتيها، ولثمت الأثر القاني الذي خلفه السوط. فقذف أبي السوط، وانطلق يصعد درجات المدخل، واندفع داخل البيت... فابتعدت زنيدا عن النافذة، باسطة ذراعيها، ملقية برأسها إلى الوراء... فارتددت على أعقابي، خائر القوى من شدة الخوف، وقد هبط قلبي من شدة الذهول. وعدوت حتى نهاية الشارع الجانبي، فكدت أفلت زمام إلكتريك، ثم عدت إلى شاطئ النهر. وكانت خواطري مبلبلة مطلق البلبلة. فلقد كنت أعلم من قبل أن أبي، الذي يتصف عادة بالهدوء والاتزان، تنتابه أحيانًا نوبات مفاجئة من الغضب والهياج، ومع ذلك فقد استحال عليَّ أن أدرك حقيقة ماوقعت عليه عيناي... ولكني كنت أدرك أني لن أستطيع، ما حييت أن أنسى إيماءة زنيدا، ونظرتها، وابتسامتها، وكنت أدرك أن صورتها، التي تكشفت لي مفاجأة في هذا المظهر الجديد، سوف تبقى إلى الأبد منقوشة في مخيلتي، وكنت أمرق النهر في شبه غيبوبة، لا أحس بالدموع تنحدر على خدي، وأنا أقول لنفسي وأعيد القول: "إنه يضربها، يضربها، يضربها..."

وسمعت فجأه صوت أبي من ورائي:

- تعالَ: أعطني العنان.

فأعطيته إياه في حركة آلية. فقفز على ظهر إلكتريك... وكان الحصان قد أصابه القر من طول الانتظار، فشب ثم وثب إلى الأمام نحو

عشرة أقدام... ولكن أبي سرعان ماكبح جماحه، ضاربًا مهمازيه في جانبي الحيوان، وضاربًا إياه على رقبته بقبضة يده... وهو يتمتم قائلًا:

- آه.... ليس معي سوطي!

فتذكرت فرقعة السوط وهو يهوي، وارتجفت.

ثم سألت أبي بعد هنيهة:

- ماذا فعلت به؟

فانطلق راكضًا دون أن يجيبني. فلحقت به. إذ كنت أشعر أنه لا بد لي من رؤية وجهه:

وسألني أبي متمتمًا:

- هل أتعبك الانتظار؟

- نوعًا ما، ولكن أين وقع منك السوط؟ لم يقع مني وإنما رميته. ثم استغرق في التفكير، مطرقًا برأسه... وعندئذ رأيت، لأول مرة وربما لآخر مرة، مبلغ ما يمكن لتقاطيع وجهه الصارمة أن تعبر عنه من عطف وحنان. وركض بحصانه من جديد، فلم أستطع هذه المرة أن ألحق به، ووصلت إلى البيت بعده بربع ساعة. وقلت لنفسي مرة أخرى، في تلك الليلة، وأنا جالس إلى مكتبي الذي أخذت تتراكم عليه الكتب والكراسات: هذا هو الحب! هذا هو العشق!... وأنا... كنت أحسب..."

وكانت حوادث الشهر الماضي قد أنضجتني وحنكتني، فبدا لي حبـي أنـا، بعواصـفه وآلامـه. إذ ذاك أمرًا صبيانيًّا تافهًا لا أهميـة لـه بالقيـاس إلى ذلـك الشيء الآخـر المجهـول الـذي كنـت لا أستطيع أن أدرك من كنهه سوى بعض الفروض والتكهنـات، ذلـك الشيء الـذي كـان يرهبنـي كوجه غير مألوف، جميل ولكنه متجهم، يسعى المرء عبثًا أن يتبينه وسط غياهب الليل...

ولقد رأيت في المنام حلمًا غريبًا مرعبًا تلك الليلة. حلمت أني دخلت غرفة منخفضـة السـقف مظلمة... وكان أبي واقفًا هنالـك، ممسـكًا بسـوطه، يضرب الأرض بقدميـه، وفي زاويـة الغرفـة كانت تجثم زنيدا، وقد ارتسم قرح دامٍ، لا على ساعدها بل على حاجبها. وكان يقـف خلفهـما بيلوفروزوف، ملطخًا بالدماء، وقد فتح شفتيه الشاحبتين متوعدًا أبي في حنق وغضب...

وبعد ذلك بشهرين دخلت الجامعة، وبعد ذلك بستة أشـهر مـات أبي (بالسـكتة القلبيـة) في بطرسبورج، كان قد تسلم خطابًا من موسكو أقلقه إقلاقًا شديدًا. فذهب إلى أمي وسألها شيئًا ما، بل يقال إنه بكى_أبي بكى، وفي صباح اليوم الذي أصيب فيه بالسكتة القلبيـة، شرع يكتـب خطاباً لي بالفرنسية، فقال فيه: "يا بني، احترس من حب المرأة، احـترس مـن تلـك المتعـة، مـن ذلك السم...." وبعد وفاته، أرسلت أمي مبلغًا كبيرًا من المال إلى موسكو.

ومضت ثلاثة أو أربعة أعوام. وكنت قد تخرجت في الجامعة، ولكنني لم أكن قد قررت بعد أي سبيل أسلك، أو أي باب أطرق، فكنت أمضي أيامي في هذه الأثناء عاطلًا كسولًا. وفي ذات مساء التقيت أنا ومايدانوف في المسرح. فعلمت أنه متزوج ويشغل وظيفة حكومية، ولكني لم ألاحظ عليه أي تغيير. فقد كان لا يزال يتحمس للعقيم من الأمور، وتنتابه نوبات مفاجئة من الكآبة والانقباض.

وقال لي عرضًا:

- هل تعلم أن السيدة دولسكايا هنا؟

- من السيدة دولسكايا؟

- أنسيت؟ هي الأميرة زاسكيا سابقًا، تلك التي كنا جميعًا _وأنت من بيننا_ واقعين في شباك غرامها... في الريف، بجوار حدائق نسكوتشني، أتتذكر؟

- وهل تزوجت دولسكي؟

- أجل.

ـ وهل هي هنا في المسرح؟

- كلا، ولكنها وصلت إلى بطرسبورج من بضعة أيام، وهي تتأهب للسفر إلى الخارج.

ـ وما نوع زوجها؟

- أوه، إنه فتى ممتاز، وثري أيضًا. وقد كنا نعمل معًا في موسكو. ولا شك أنك تدرك أنـه بعـد تلك "الحكاية"_طبعًا أنت تعرف الموضوع كله (وابتسـم مايـدانوف ابتسـامة ذات مغـزًى) لم يكن من السهل عليها أن تجد زوجًا؟ فقد كان للأمر عواقب... ولكن امـرأة تبلـغ مبلغهـا مـن القدرة والبراعة، لا يصعب عليها التوصل إلى كل ما تريد. اذهب وزُرها، فلسوف يسرهـا أشـد السرور أن تراك. وإنها لأشد فتنة مما كانت في أي يوم من الأيام. وأعطاني مايـدانوف عنوانهـا. وكانـت تقـيم في فنـدق ديمـوث. وانبعثـت الـذكريات في نـفسي... فعقـدت النيـة عـلى زيـارة معشوقتي القديمة في اليوم التالي. ولكن طرأت عوارض، ففات أسبوع، وتلاه آخر فلما توجهت في النهاية إلى فندق ديموث وسألت عن السيدة دولسكايا قيل لي إنها قـد قضـت نحبهـا، عـلى غير توقع، أثناء المخاض، وقد مضى على موتها أربعة أيام...

فشعرت كأن امرأ لطمني على قلبي، وأخـذ يـنهش نـفسي في تبكيـت شـديد عقـيم الإحساس، بأنه كان يمكنني أن أراها، فلـم أرهـا، ولـن أراهـا أبـدًا... ورددت القـول: "ماتت"، وأنا أحملق في بـواب الفنـدق في شـبه غيبوبـة، ثـم خرجـت في هـدوء إلى الشارع وطفقت هائمًا على وجهي... وانطلقت صـور المـاضي متتابعـة أمـام عينـي... هذه هي اذن النهاية المحتومة لتلك الحياة المتوثبة الفتية اللامعة، وهذا هو المصـير الذي كانـت تتطلـع إليـه بكـل ذلـك القلـق والتعجـل، وتـذكرت، وأنـا مسـتغرق في

هذه التأملات، تلك التقاطيع العزيزة، هاتين العينين، وتلك الخصلات وقد أغلق عليها داخل صندوق خشبي ضيق، يرقد في باطن الأرض الرطب المظلم، في مكان ما ليس ببعيد مني _أنا الذي لا زلت حيًّا_ وربما على بعد خطوات قليلة من مثوى أبي... ولا زلت أقلب هذه الخواطر في ذهني، محاولًا صب تفكيري عليها، ولكن بيتي الشعر:

نطقت شفاه لا تبالى بالخبر المشئوم

فتلقفته لا تبالى بالخبر أذناي...

أخذا يترددان فى ذهنى... آه، يا للشباب، يا للشباب! إنك لا تكترث لشيء، وكأنك تملك كنوز الكون طُرًّا، حتى الفجيعة تلهو بها، وحتى الشجن لا يعكر صفوك، إنك تقول، فى ثقة واعتداد: انظروا، إنى حتى وحدي، على حين تمضي أيامكن سراعًا، متلاشية بغير حساب، غير مخلفة أثرًا، ويتلاشى كل شيء فيكم، كما يذوب الشمع فى ضوء الشمس، وكما يذوب الجليد... وعلى سر فتنتك، أيها الشباب، لا تكمن فى مقدرتك على تحقيق ما تريد، بل فى قدرتك على الاعتقاد بأنه لا يوجد شئ تعجز عن تحقيقه، وفي إسرافك وتهورك فى إنفاق القوى التي لا تستطيع أن تجد لها سبيلًا آخر، وفى أن كلًّا منا على يقين من حقه في أن يقول: ولو لم أضع وقتي هباء وعبثًا ما كان هناك شيء لا أستطيع عمله! فأنا مثلًا: على أي أساس بنيت آمالى، وماذا كنت أنشد، وأي مستقبل باهر كنت أتوقع، وأنا الذي لم أكد أتنهد مرة واحدة، أو

أشعر لحظة واحدة بالأسى، عندما ودعت شبح حبي الأول؟ وأي أمل من آمالى تحقق؟ ولكنني الآن، وقد أخذ المساء يلقي ظلاله القاتمة على طريقي، وهل هناك شيء أبهج وأنفس من ذكريات تلك العاصفة المبكرة العابرة التي هبت على ربيع حياتي؟

ولكن لماذا أسعى فى الافتراء على نفسي؟ فحتى فى ذلك العهد، أيام الشباب الطائش، لم أكن أصم لا أسمع الصوت الحزين المهيب يناديني من جوف القبر. وأتذكر أني بعد أن سمعت بموت زنيدا بأيام قلائل، توجهت من تلقاء نفسي، راضخًا لنازع لا يقاوم، إلى فراش موت امرأة عجوز مسكينة كانت تعيش في المبنى الذي نعيش فيه. كانت راقدة تنازع، مكافحة من أجل الحياة، تحت غطائها المرقع، وسريرها لوحان من الخشب، ووسائدها كيس من الخيش. ولقد كانت حياتها صراعًا طاحنًا مع فقر لا يريم. ولم تعرف قط أية متعة، ولم تذق قط طعم السعادة.

وكان المرء يتوقع أن يرحب مثلها بالموت، ويرى فيه مخلصًا وسلامًا ولكنها، على حين، كان جسدها الناخر لم يزل متماسكًا، وعلى حين كان صدرها لا يزال يخفق فى عسر تحت رحمة اليد الجليدية القابضة على عنقها، وعلى حين كان لا يزال فيها رمق الحياة، لم تنقطع المرأة العجوز عن رسم علامة الصليب، هامسة: "أيا ربي، اغفر لي ذنوبى..." ولم تختفِ رهبة الموت من عينيها إلا بعد أن لفظت النفس الأخير... وأتذكر أنى عندئذ _بجوار سرير الموت_ فكرت في زنيدا هلعًا مكروبًا، واستحوذت عليَّ الرغبة في الصلاة من أجلها، ومن أجل أبى، ومن أجل نفسي...

404
الكتاب غير موجود...

الحُبُ الأول

كتب إيڤان تورچنيف روايته "الحب الأول" في عام 1860، لتكون من أشهر الروايات القصيرة في ذلك الوقت، وهي تقدم صورة أخرى عن الحب، هي شحنة غاضبة ضد الحب.

والرواية من الروايات السيكولوجية التي يستعرض فيها الكاتب فلسفة القتل باسم الحب، فالبطل الرئيسي في الرواية يتحول بفعل الحب إلى وصيفٍ لمحبوبته، ترفعه وتهوي به كيفما تشاء، لنجد أنفسنا أمام الحب لا بوصفه منقذًا، بل بوصفه قاتلًا محترفًا.



تصميم الغلاف : أحمد الصباغ
Painting by Konstantin Makovsky

ISBN 978-977521730-1
9 789775 217301

أقلام عربية
للنشر والتوزيع